

جامعة أم درمان الإسلامية
كلية الدراسات العليا
كلية اللغة العربية

بحث لنيل درجة الماجستير

بعنوان:

الشعر الوطني في السودان

في الفترة من ١٩٥٦ – ٢٠٠٠

(دراسة تحليلية نقدية)

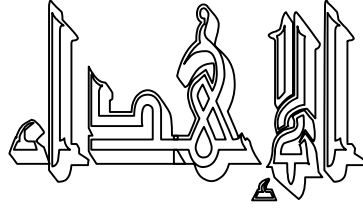
إعداد الطالب:

منتصر عثمان محمد حمودة

إشراف الدكتور:

عبد الرحمن عطا المنان محمد البشير

١٤٢٨ – ٢٠٠٧ م



إلى أبي ...

إلى أُمِّي ...

إلى أخواني ...

إلى إخواتي ...

إلى زوجتي

إلى ابنتي

وقد جعلتهم - من فرط جهلي - يحسنون الظن بي

شكر وتقدير

كان لزاماً علي وأنا قد أشرفته علي نهاية هذا البحث أن أتقدم بالشكر لكل من ساعدني سواء أمدني بالأخبار أو المراجع أو التوجيه . وأشكر الشعراء الذين اتصلت بهم مستفسراً عن تاريخ بعض القصائد وقبل ذلك نشكرهم لما أبدعوا وامتعوا .

وأخص بالشكر الجزيل الدكتور عبد الرحمن عطا المنان وقد بذل جهداً مقدراً في إكمال هذا البحث .

وأيضاً أشكر الأخ الاستاذ حسن محمد أحمد مسجل الدراسات العليا لكية اللغة العربية .

مقدمة :

كان يتملح داخلي البحث في الشعر السوداني منذ أن استطعت أن أجد متعة في المقارنة بين شعرنا وشعر الآخرين . وكنت أصطنع في ذلك الحيات . وأنا أشتكي لما لم يستطع شعرنا أن يعلم جمهوره ، ولما استطاع شعر الآخرين أن يعلم جمهوره؟ ثم ذهبت في الأمل لأبعد من ذلك حينما اقترحت علي نفسي إصدار موسوعة لتحليل الشعر السوداني في موضوعاته جميعاً الوطني ، والجمالي ، والفلسفي ، والديني ، وما إلى ذلك . وقد نشأ هذا التطوع عندي لما أحسه من فقر في العلاقة بين شعرنا ومواطنينا . ولما أحسه من غني في العلاقة بين شعر الآخرين ومواطنيهم فأدعيت أن المشكل ليس في الشعر السوداني إنما في الدراسات النقدية ، التي على قلتها ، عالجت ذلك الشعر . فالعلاقة بين الشعر والنقد والجمهور علاقة جدلية لا تعفي طرفاً في المعادلة الإبداعية فانتبهت إلى اتهام إحساسنا الوطني أول ما انتبهت وقد نشارك الآخرين في سب بلادنا دون أن يردعنا وازع وطني .

ولأن هذه الفترة الزمنية لم تبحث كثيراً في شعرها ؛ اخترتها . وأري أن البحث يفتح الطريق لباحثين آخرين .

ثمة مشاكل تعوق الباحث سيما إذا كان بحثه يتم ضمن سياق زمني محدد كالبحث الذي حاولت انجازه وقبل أن استرسل اعترف بأن الاستقلال لم يمثل فارقاً زمنياً حاسماً علي المستوي الشعري لذلك كان لابد أن اتحري التواريخ التي كتبت فيها القصائد .

وهذا دفعني أحياناً أن اتصل ببعض الشعراء مستفسراً عن تاريخ هذه القصيدة أو تلك . فضلاً عن ذلك فقد عمدت إلى إهمال القصائد محل الشك زمنياً .

المشكل الثاني ناتج عن خطأ معرفي فالشعر السوداني المكتوب باللغة العربية الفصحى لا يمثل مشاعر كل السودانيين وهذا يجعلنا نتحفظ عن اطلاق جملة (الشعر السوداني) ذلك أن اللغة العربية لم تستقص مشاعر كل السودانيين .

التفت إلى الشعر الوطني فوجدت أن الشعراء قد كتبوا ولم يجدوا من يقايبهم نقداً وتحليلاً وتفسيراً ودراسة . وهذا انعكس علي الأداء الشعري نفسه سلباً فوجدت

الدراسات النقدية عن الشعر الوطني ما بعد الاستقلال شبه معدومة وما كتب وقدم من دراسات نقدية كان يرد ضمن سياقات آخر ككتاب الناقد محمد محمد على (الشعر الوطني في المعارك السياسية) .

فقدت بدراسة الشعر الوطني في الفترات السياسية التي عاشها السودان ابتداء من دولة الفونج وحتى دولة الحكم الإنجليزي المصري مروراً قبل ذلك بالعهد التركي ودولة المهدي فلم أجد في دولة المهدي من الشعر ما يقيم أود رسالة ماجستير وكذلك العهد التركي والفونجي حتى إذا لاحت بارقة الأمل في شعر دولة الحكم الإنجليزي المصري ، وجدتها قد تناولها بحث للدكتور بابكر الجزولي عثمان نال به رسالة الدكتوراه . فتوجهت تلقاء الاستقلال ١٩٥٦م وحتى نهاية القرن العشرين . وإن كانت هذه الفترة مثلت لي أملاً أخيراً ؛ فإنها كانت الفترة الأكثر غني من جملة حيثيات :

أولاً : مثل شعر ما قبل الاستقلال دوره في مسرح واحد هو كيف يحرر البلاد ؟ بينما مثل شعر ما بعد الاستقلال علي أكثر من مسرح ومثل آفاقاً جديدة ما كان العالم قد أدرك كيف يجوبها .

ثانياً : لم يتوافر علي دراسة هذه الفترة من النقاد ، علي غناها ، ناقد وهذا أعطاني أملاً في الأسبقية .

ثالثاً : أصبح العالم منذ الستينيات وحتى نهاية القرن العشرين كأنه عالم جديد من حيث التطور والتغيير اللذان أضافتهما التكنولوجيا وثورة الاتصالات والأصطفاف العالمي وبروز المعسكرات وما أفضت اليه الحربان العالميتان . ففي عالم جديد . كيف عبر الشاعر السوداني عن وطنيته ؟ هل كان الشعر صادقاً وعليه فقد أسس مبدأ راسخاً للتربية الوطنية ، أم أنه كان تعبيراً أفضي إلى وطنية زائفة ؟ ومن كل ذلك نشأ عندي السؤال المحوري الذي حاولت هذه الدراسة الإجابة عنه هل وطنيتنا تأتي من الخلف ، الماضي ، الاستعمار ؟ أم تأتي من الحاضر الاستقلال الذي هو استشراق متجدد نحو المستقبل ؟

كان علي أن أبحث الشعر الوطني في مراحل تطوره كلها ابتداء من دولة الفونج مروراً بالعصر التركي إلى دولة المهديّة ثم إلى دولة الحكم الإنجليزي المصري مقدّمةً لبحثي .

فقد كان مصدر الشعر في دولة الفونج واحداً هو كتاب (الطبقات) لمحمد نور ود ضيف الله ، وكان شعراً ضعيفاً وكذلك الشعر في دولة المهديّة فقد اتسم بطابع النصح والإرشاد .

تطور الشعر في فترة الحكم الإنجليزي المصري تطوراً كبيراً .

عمدت بعد هذه المقدمة إلى تقسيم بحثي ثلاثة أبواب . الباب الاول المفاهيم الوطنية في الشعر السوداني (المفاهيم الوطنية في الشعر السوداني) ويشتمل علي ثلاثة فصول الفصل الأول (الاستقلال) ماذا كان يمثل الاستقلال عند الشعراء ؟ وكيف ينطوي الاستقلال السياسي علي أنواع استقلالات أحر. فقد رأينا شعراء انفعلا بالاستقلال وآخرين وصفوه، وآخرين راهنوا عليه ، وكيف كان الاستقلال عند بعضهم ممثلاً للخيبة ؟

في الفصل الثاني تناولت مفهوم (الهوية) وكيف أنها مثلت إحدى المشاكل التي أرتدت علي الشعر . فقد تجاذبت الشعراء نظرتان عرقيتان وجدنا في الشعر السوداني من يوفق إلى نظرة ثالثة في الحياد هي (السودانية) بدلاً من الصراع بين العروبية والزنوجة .

تناولت في الفصل الثالث مفهوم (الحب والتضحية والفداء) وقد لاحظنا أن الشعر الوطني في هذه الفترة كان تنوعاً فقد جاء بعضه احتجاجاً وبعضه استبصاراً وبعضه حضا وبعضه تصويراً وبعضه تسجيلاً .

في الباب الثاني (الرموز الوطنية في الشعر السوداني) قسمته إلى أربعة فصول الفصل الأول (النيل) رمزاً وطنياً وكياناً كبيراً التف حوله الشعراء الوطنيون. فوجدناهم قد أودعوه شكواهم وآمالهم وجراحهم باللجوء اليه كلما حزبتهم أمور، ويبشرهم ويناديهم كلما ابتعدوا عنه وناوا .

تناولت في الفصل الثاني (المكان) قراه ، ومدنه ، ووديانه ، وجباله ، وسهوله في الفصل الثالث درست مشاركة الشعر السوداني في القضايا الوطنية الخارجية .

أما في الباب الثالث (الخصائص الفنية للشعر الوطني) وفيه فصلان الفصل الأول (المضمون) درست الخصائص الفنية التي امتاز بها الشعر الوطني السوداني بعد الاستقلال والأفكار والمضامين الجديدة التي طرحها الشعر .

في الفصل الثاني (الأسلوب) تطرقت إلى الأساليب التي طرحها الشعر من حيث اللغة والصورة .

ثم ختمت البحث ببعض النتائج والتوصيات .

تمهيد :

خلف الله الإنسان ومهد له الأرض ليحقق فيها عبوديته وإنسانيته من لدن خلقه لآدم عليه السلام. خلقه مرتبطاً بالمكان الذي ظل آدم يعيش فيه مشكلته الأولي ، وصراعه البكر. تمثل ذلك في اجتهاده الدؤوب ليعيد نفسه إلى الجنة التي كان قد أخرج منها . من حينها ظل الإنسان يطلب أرضه الأولي فيما يتجاذبها آخرون وعرف هذا عند البشر بأنه الدفاع عن الأرض -والذي اتخذ مع تطور الحياة- أبعاداً أخري جعلت منه في كثير من الشرائع دفاعاً عن الدين.

في جدلية بين المكان والإنسان نشأت أفكار ورؤي وصراعات ومصالح وحروب وغيرها أفضت إلى الفكر والفلسفة والدين والفن .
وإذا أمعنا النظر حيال ذلك فإن الأرض هي مقابل الوحي وأن الإنسان خليفة الله علي الأرض .

مما سبق نستطيع أن نزعّم أن من الأفكار والمفاهيم والمعاني التي يعيشها الإنسان علي الأرض هو مفهوم الوطنية. وفي التفسير هو المبادئ والأفكار والمعاني التي يستغرقها الإنسان من خلال علاقته بأرضه. والمصطلح أن صح التوصيف فإنه نشأ عميقاً وحراراً فيما يعبر عن سيادة الإنسان علي أرضه يعبر عن حرّيته وأرادته .
والشعر عند الامم جميعاً رافد حيوي يغذي ويتغذي عاش معها في كل ما عاشته. فإن كان عند العرب ديوانهم فهو مجموع آمالهم وجراحهم وكل حياتهم فهو عند شعوب أخري لا يقل وظيفة ودوراً. لذلك نراه قام برسالات عظيمة عند الشعوب. فهو يبني هنا بتفان ويهدم هنالك بإخلاص. يبشر هنا وينذر هناك وكما يتمدد الإنسان بقواه وعقله وخياله وفكره ، يتمدد الشعر بفاعليته وسلطانه وصوته. لذلك كان يتصدي ، يحاور ، يناقش ، يجادل ، وفي كل كانت الكلمة هي الفارق. فالشعر هو البحث الدائم للطاقة الممكنة والمتخيلة ، والواقعة والمتوقعة. وعليه فإن أول ما عبرت الشعوب عن آمالها دفعت به مستكشفاً ورائداً وحينما عبرت عن حبها لأرضها ودارها دفعت به زائداً وحامياً .



تفاوتت الشعوب في طرق التعبير عن علاقتها بأرضها من حيث الأدوات والكيفيات فبينما دافعت شعوب بالسيف دافعت أخرى بالقلم وبينما عبرت شعوب بالشعر عبرت أخرى بالموسيقى والرواية وهكذا مثل الشعر دوره الأساسي في الحياة .

السودان هذه البقعة من الأرض ذات التاريخ والجغرافيا إذا تجاوزنا التفاصيل لا تتجزأ عن العالم. فقد تأخر فيه التدوين كثيراً كما تأخر تحديد هويته وهذا التأخير أفضي إلى :

تأخر التدوين جعل من الفترة ما قبل دولة الفونج خارجة عن الدراسة وإن كنا ندرك أن التاريخ لا تتفصل حلقاته فإننا نؤكد أن دولة الفونج لم تكن حلقة مستقلة في تاريخ السودان ولا بد أنها أركزت واستفادت من جدليات أخرى سابقة ارتبط تطور الشعوب بالآثار المباشرة لمنجزاتها ما يعني سقوط حقب بآثارها كانت كفيلة أن تجعل لدولة الفونج رصيذاً يعين علي تلمس الحاضر والمستقبل علي ضوء وبصيرة .

المشكل الآخر هو مشكلة الهوية ، وإن كنا سنتطرق اليه لاحقاً لكن سياق هذه المقدمة يدفعنا بأن نشير إليه. فإن تأخير الوصول لصيغة نهائية للهوية السودانية أفضي إلى ألا ينتظم الشعب السوداني في بوتقة واحدة وظل طوال عمره يحتكم إلى إثنيات عرقية ودينية وقبيلة وجهوية ومناطقية وصل تجسيد هذه الأثنية إلى حد المواجهة والتقاتل، وذهب عند آخرين مذاهب أخرى ليس أقلها الإنكفاء والانغلاق .

تعدد لهجاته ولغاته جعل من العسير علي هذه الدراسة إدعاءها الإحاطة بموضوع الشعر الوطني. ذلك أن لغة هذه الدراسة ومحورها هي العربية بينما لا يتكلم كل السودانين العربية ومن ثم دراسة منجزات تلك الجهات علي مستوي شعرها وذوقها وهي لا تتكلم العربية وهذا بدوره حرماننا من الزعم الجميل أن دراستنا أحاطت بدراسة المشاعر الوطنية عند كافة الشعب السوداني عندئذ يخطر ببالي دائماً ضرورة

إنشاء مراكز ووحدات ترجمة تتناقل فيما بينها أكثر من مائة لهجة هي ما يتحدثه السودانيون .

في هذه المقدمة سنتحدث عن الشعر الوطني في مراحل تطوره من دولة الفونج مروراً بالدولة التركية إلى دولة المهديّة إلى دولة الحكم الإنجليزي المصري .
مثل العصر الفونجي ١٥٠٤-١٨٢١م تتويجاً لتعاظم سلطان اللغة العربية بعد الهجرات الأولى للمسلمين وانتشار الثقافة الإسلامية التي استطاعت أن تغطي علي كثير من الثقافات المحلية ، فقد عرف السودان إبان فترة انتشار الطرق الصوفية نظم الشعر .

إن صلة دولة الفونج بالحجاز ، ومصر رفدت التيار الإسلامي العروبي بالكثير . فمن ناحية مصر فإن الأزهر الشريف مثل قبلة للغة العربية عند الفونجيين .
دفع هذا الانفتاح إلى خلق تيار في الشعر جمع فيه الشعراء بين العامية والفصحى وإن كانت العامية لم تزل تستحوذ علي الشعر اسلوباً وطريقاً ولما كانت الطرق الصوفية وعلي رأسها الطريقة القادرية تنشر الإسلام بين البدو والرعاة كان السكان يدخلون شيئاً فشيئاً في الإسلام .

إن التيار الديني الطاغي علي دولة الفونج سواء أكان تحت تأثير الطرق الصوفية أو للعلاقة الوطيدة التي جمعت بينهم ودولة الحجاز والأزهر الشريف أدي إلى أن يستولي الزعماء الدينيون علي ساحة الشعر فجاء معظم الشعراء من الفقهاء والمتصوفة^(١) .

كان الشعر ذو الطابع الديني يرافق الحياة منذ أن عرف السودان العربية وكان يستبطن حينما يكون هناك رقيب رمزية تعين علي الاحتجاج لاحظنا ذلك فيما

(١) عبد الهادي الصديق ، أصول الشعر السوداني ، دار جامعة الخرطوم ، ط ٢ ، ص ٨٦

كتب ومدح به أولاد حاج الماحي وكذلك شعر البطانة الدارج (الشعر الدارج حينئذ بمضامينه الأولى أكثر تعبيراً عن وجدان الإنسان البسيط بكل فقره وتخلفه وأميته)^(١).
لم يبلغنا من شعر دولة الفونج الكثير سواء لضعف إنتاج الشعراء أو لعدم انتشار التدوين . وكنا قد أئمننا إلى أن المجتمع السوداني كان رعوياً زراعياً لا يتبني التدوين في خطة حفظه لتراثه إنما كان يحفظه بالتشافة. وقد ند عن هؤلاء محمد نور ضيف الله . والذي لم يثبت عن دولة الفونج كثيراً من الشعر الفصيح وحتى الذي وصل إلينا من خلاله كان شعراً ضعيفاً في لغته ونحوه وعروضه (لم يصل عن عهد الفونج من الشعر الفصيح إلا نذر قليل وأقل منه ما سلم من ضروب الضعف المختلفة)^(٢).

وهنا لابد أن نقف حيال دولة منظمة استمرت لأكثر من ثلاثة قرون وعاشت الإسلام لأكثر من ثمانية قرون هنا نسأل ما الذي جعل اللغة العربية وآدابها هذا النمط المتخلف ؟ ولكن نستطيع أن نلتمس لذلك سبباً أو سببين أولاً : لم تدخل العربية أرضاً بكرة إنما دخلت أرضاً ذات ثقافات متجذرة وضاربة في العراقة مما جعل معاناة العربية كبيرة وحتى تستوي هذه اللغة علي سوقها كان لابد أن تستغرق هذا الزمن فضلاً عن ذلك فإن تاريخ قيام دولة الفونج هو العصر الذي بلغ فيه الشعر العربي ذروة انحطاطه وهذا المناخ ليس من المستبعد أن تكون قد وقعت تحت تأثيره دولة الفونج .

ففي العهد التركي ١٨٢١م - ١٨٨٥م ازدادت الصلة بمصر ومهما كانت دوافع محمد علي باشا فإن السودان كله أصبح تحت مركز مؤسس فد أصبح للبلدين تبادل في كل المجالات، وجعل من السودان دولة حديثة بعض الشيء ما يجعل تطوره حتمياً. فقد صاحب الجيش علماء وأدباء أثروا الأدب السوداني شيئاً ما^(٣)

(١) عبد الهادي الصديق ، أصول الشعر السوداني ، دار جامعة الخرطوم ، ص ٨٦

(٢) عز الدين الأمين ، تراث الشعر السوداني مطبعة الجيلاني ، القاهرة ١٩٦٩م ، ص ٢٢

(٣) محمد المهدي المجذوب ، مقدمة ديوان الحان وأشجان ، الشاعر محمد محمد علي ، الخرطوم ، مطبعة

ومن ذلك فتحه المدارس. فإن أول مدرسة فتحت لتدريس العلوم الحديثة من حساب ولغة كانت مدرسة الخرطوم التي افتتحها الطهطاوي في عهد عباس باشا فضلاً عن ذلك فإن نفوذ الأزهر الشريف كان قد اتسع بسبب الهجرات . فقد ازدهرت اللغة وعلومها مع كثرة خريجي الأزهر الشريف مما انعكس أثره علي الشعر . مع ذلك ظل الشعر بموضوعاته القديمة يراوح بين المدح النبوي الشريف والشخصي لرجال الدين وبعض الحكم والحماسة والأخوانيات . من شعراء تلك الفترة الأمين الضرير ، ويحي السلاوي ، والشيخ إبراهيم عبد الدافع ، ومحمد أحمد هاشم .

حينما نتحدث عن التيار الوطني في الشعر السوداني فإننا نأخذ بعين الاعتبار مراحل تطوره ونؤكد أنه يتحرك بمقدار تحرك الشعراء في إطاره . وحينما نحكم بضعف التيار الوطني فإننا نلمح إلى انسحاب الشعر الوطني في الفترة التي كان السودان أحوج ما يكون لصوت الشعر الوطني كفترة الحكم التركي . فقد ظل التيار الوطني متخلفاً بسبب انصراف الشعراء بشعرهم لموضوعات كالنصح والإرشاد (٢)

وشعر كهذا لا يمكن أن تعول عليه دولة في التعبير عن آمالها وجراحها واستقلالها فلم يشارك الشعر في دفع المظالم بل كان السيف أكثر حضوراً. بل نجد من الشعراء من مدح العصر التركي كالأمين الضرير في مدحه للخديوي .

فالله يحفظ هذا الجمع متبعاً * * توفيقه وله عز وسلطان
في ظل والده الممدود عمر * * له مد الطول بالخيرات عمران
عين الفضائل لا تحصي فضائله * * لأنه فاضل الإحسان محسان^(١)

ومهما يكن فإن العصر التركي مثل تنوعاً للتأثير المباشر علي الواقع السوداني برمته .

قامت الثورة المهدية ١٨٨٥م - ١٨٩٨م لأسباب دينية وسياسية واقتصادية واعتمدت علي العامل الديني كمرتكز يستنهض الروح الوطنية وقد صادف قيامها

(٢) عبد المجيد عابدين ، تاريخ الثقافة السودانية ، ط ١ ، ص ٣١

(١) مختارات من الشعر السوداني المعاصر ، د . فتح الرحمن حسن التني ، ط ١ ، ١٩٩٩ ، ص ٣١

قبولاً عند الناس خاصة الطرق الصوفية ، ورجال الدين ، ذلك أن المهدي شخصية روحية ملهمة ، وقد كان الشعراء يلقون قصائدهم أمام المهدي قبل أن ينشدها المنشدون .

ولأن المهدي شديد الإيمان بدور الشعر والشعراء أسوة بالرسول صلي الله عليه وسلم فقد جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول لحسان بن ثابت رضي الله عنه (أجب عني اللهم أيده بروح القدس). وفي رواية أخرى يقول لحسان (أهجم أو هاجهم وجبريل معك)^(٢) لذلك خطي الشعر خطوات كبيرة للأمام فقد كانت شخصية المهدي محل إلهام للشعراء بفكرة المهدي (عكف المهدي علي إنتاج حياة فكرية ثورية واتبع المثل العليا والقيم الأخلاقية)^(٣)

لذلك انحصر حضور الشعر في الدولة المهدية بالدرجة الأولى في مدح المهدي نفسه والتغني بالبطولات. تعبر عن ذلك قصيدة محمد عمر البنا التي أنشدها المهدي في الرهد غربي السودان قبل تحرير الخرطوم ١٨٥٨ م .

الحرب صبر واللقاء ثبات	والموت في شأن الإله حياة
الجبن عار والشجاعة هيبية	للمرء ما اقترنت بها العزمات
والصبر عند اليأس مكرمة	ومقدام الرجال تهابه الوقعات ^(٤)

وقد كان واضحاً فيها الروح الديني من فداء وجهاد. كما احتشدت بروح القصيدة العربية من تماسك وحسن تعبير ما يعني أن الشعر استطاع أن يكسب درجات إضافية في فترة المهدية. لكنه لا يزال منكفئاً علي موضوعات مثل الحماسة ومدح المهدي وخليفته والهجاء والأخوانيات والرثاء كما عند حسين الزهراء ومحمد عمر البنا. كما نلاحظ أنه لا يزال شعراً متكلفاً عاجزاً عن التعبير عن آمال وطموحات الأمة وعاجزاً عن التعبير عن أحداث المهدية الكبيرة وبطولاتها التي هزت

(٢) رياض الصالحين ، ص ٤٦٠

(٣) ضرار صالح ضرار ، تاريخ الشعر الحديث ، مكتبة الحياة بيروت ، ١٩٦٨م ، ط ١ ، ص ١٧٤

(٤) محمد عمر البنا ، ديوان البنا ، الخرطوم ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، ١٩٧٦ ، ص ٣١

أركان العالم حينها (فقد كتب علي شعر تلك الفترة أن يجانب الأحداث الكبار والمأسي المروعة)^(١).

كما أقفل الشعر الوطني قضايا وأحداث كانت كفيلة برفد التيار الوطني وتغذيته كما اعتزل قضايا حيوية معاصرة كانت كفيلة بتقوية الشعور بالمشاركة الجماهيرية إذ إن الشعر لا يحيا في واقع ميت ولا يكون معلقاً في الفراغ (اعتزل الصراع الدائر بين الخليفة عبد الله وبين الأشراف بصورة واضحة)^(٢)

الحكم الإنجليزي المصري ١٨٩٨ - ١٩٥٦ م :

هي الفترة التي استوت فيها المؤسسات الحكومية والاجتماعية بعض الشئ وأصبح العالم يلقي بحضارته ومدنيته بواسطة الاستعمار علي البلاد المستعمرة فكان من تأثير هذا المناخ أن انتظم واتسع التعليم علي النحو الذي رأينا فيه إنشاء كلية غردون وتعليمها الإنجليزية والتعريف بالأدب الإنجليزي والآداب العالمية عن طريق الترجمة فقد كان للأساتذة المصريين والسوريين الذين أتوا هذه البلاد بعد الفتح للتدريس في المعاهد الحكومية أكبر الفضل في انتشار آداب اللغة العربية وتعليم اسلوب النثر الحديث ، كما كانت هناك البعثات تقوم بالدور نفسه فقد أرسل الإنجليز أربعة عشر طالباً سودانياً إلى الجامعة الأمريكية ببيروت ١٩٢٤م وعاد بعضهم إلى السودان وهم يحملون أفكاراً وأراء جديدة ساهمت في شتي المجالات كتطوير الحركة الثقافية والفكرية بالسودان . كما أرسلت جمعية الاتحاد عدداً من الطلاب خفية إلى مصر للتزود العلمي كان ذلك ١٩٢٣ م .

كما لعبت أيضاً الصحافة دوراً متعاضماً في تزكية الحياة الفكرية والأدبية سواء أكانت بواسطة الصحافة المحلية أو الوافدة فقد كانت لصحيفة السودان والرائد والخرطوم وحضارة السودان ومجلة النهضة الدور الكبير في نشر الوعي وأثراء الفكر وإزكاء نار الوطنية وللصحف الوافدة من الخارج كصحيفة السياسة الاسبوعية التي يشرف علي تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل والبلاغ التي يشرف علي تحريرها العقاد .

(١) محمد إبراهيم الشوش ، الشعر الحديث في السودان ، ص ٥٢

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٤

نخلص من ذلك إلى أن الروح العصري الذي انتظم السودان كان له أكبر الأثر علي الروح الوطني فما لبثت الحياة أن تفتقت بالحركات التحريرية والثورية رأينا ذلك في حركة اللواء الأبيض التي كانت جماع طلاب تلقوا بعض التعليم ومن ثم تأثروا بالروح العصري السائد ساعته .

وهكذا اندفع التيار الوطني ضد المستعمر .

الحكم لله لا الألوان زاعمة وللعادلة لا الهندية الظفر
خمسون عاماً ولأغمد حممة وللسيوف إباء ليس ينتصر
أبقي فتتكرني الخرطوم كافرة غردون فيها علي المهدي منتصر
حتام نسكت لا رأي ولا عمل علي الخطوب لا سمع ولا بصر
حكم الشريكين في النيلين ينصره من عبدوا الناس بالأنساب تفتخر
شعب يمزقه النادي بساحته مطاعم القهر لا الأفكار تنتصر^(١)

فنهض نادي الخريجين دليلاً علي تعاضم الوعي

قالوا لنا إن في السودان مؤتمراً يبغي الحقوق في السودان مؤتمراً^(٢)
كما نري أن الجيل الجديد بدأ يمتلك خاصية التمرد علي الراهن ولما كان
الراهن هم الشيوخ وعجزهم عن تدبير أمرهم مع الإنجليز ارتفعت أصوات تسفه
أدوارهم :

وطني أحبك لا تحب ولا تري حب الحياة بشعري المتدبر
لو تهدي يوم الشباب وفكره وهواه ثرن علي دجاك المقفر
إن كان عتب يلوح فإنني ألقى الشيوخ بكل عتب منذر
أعيش تاريخي وأحصد غربة من موطني فكأنني في مهجر
أريت فيك سحابة من فتنة تسقي بلادي بالجراد الأغبر
إن لم أكن فيك المغير بسيفه فأنا المقاتل بالبيان الأحمر^(١)

(١) محمد المهدي المجذوب ، نار المجاذيب ، الطبعة الأولى ، الخرطوم ، وزارة الإعلام والشئون الاجتماعية ،

ص ٤١

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤١

ويرتفع النداء في وجه المستعمر بالأدوات العصرية من فكر وراي وعصيان
وذلك تحت تأثير الحركات التحررية المناهضة للمستعمر التي انتظمت العالم ساعتئذ
:

الآن يا وطني تهب منفضاً بالفكر عنك سلاسلا وجموداً
وهو الجهاد وليس غير صباحه عيد يعود على البغاة وعيدا
وطني حشدت لك القصيد مواكباً تشدو وترفع شاطئك بنوداً^(٢)

يبشر بالتغير ،التغير الذي يجب أن يطال وجه الحياة البدوية الرعوية إلى
حياة متحضرة .

كما انفتحت معاني النضال والوطنية لم تكن موجودة من قبل ذلك أن الوعي
الوطني بدأ يظهر علي وجه الحياة كأحد أدوات النضال الوطني :
لا تخذعوا إن في طيات ما ابتكروا معني بغيضاً وتشتيتاً وإرهاقا
ليصبح النيل أقطاراً موزعة وساكنوا النيل أشيعاً وأذواقاً^(٣)
كما كان لإنتشار التعليم في دفع الآداب والحياة ، كانت البعثات تقوم بالدور
نفسه :

لا ترهقونا بمال ظلنا نمارسه دهرأ كفي ما لقيناه وما لاقا
لسنا القطيع قطع الضان يزجره الراعي كما شاء إشاماً وإعراقا
إنا بنو النيل لا نرضي به بدلاً فما جفانا ولا يوماً بنا ضاقا
ولا أخص به داري ولا سكاني بل ساكني النيل تعميماً وإخلاقا
هذي سبيلي وهذا مذهبي بهما أعطيت ربي والأوطان ميثاقاً^(١)

(١) محمد المهدي المجذوب ، نار المجاذيب ، الطبعة الأولى ، الخرطوم ، وزارة الإعلام والشئون الاجتماعية ،

ص ١٥

(٢) محمد سعيد العباسي ، ديوان العباسي ، الخرطوم ، الدار السودانية ، ط٣ ، ١٩٦٨ ، ص ٩٠

(٣) المصدر نفسه .

(١) محمد سعيد العباسي ، ديوان العباسي ، الخرطوم ، الدار السودانية

وأيضاً ها هو العباسي في مليط :

فكم جلوت لنا من منظر عجب يشجي الخلي ويروي غلة الصادي
كثابك العفر ما أبهي مناظرها أنس لذي وحشة رزق لمرتاد
وباسق النخل ملء الطرف ياثم من زيل السحاب بلا كد وإجهاد
لو استطيع لأهديت الخلود لها لو أن شيئاً من الدنيا لإخلاد (٢)

ولا يتعلق الأمر بالداخل فقط بل نرى بعض الشعراء الوطنيين ذهبوا بهمومهم
وأمالهم إلى المحيط الأقليمي الأوسع مساحة والأكثر جروحاً فهي هو صالح بيلو
يتحدث عن الشرق :

أيها الشرق إلى أين تروح أي ثوب ترتدي ؟ أي مسح
أي بحر ترتوي منه فسيح أنت يا من رحمت في بطن الضريح (٣)
وتتسع رقعة الهم لتغطي إفريقيا جميعاً كما لدي الفيتوري :

إفريقيا استيقظي

استيقظي من حلمك الأسود قد طال ما نمت

ألم تسامي ؟

قد طالما استلقيت تحت الدجي

مجهدة في كوخك المجهد

مصفرة الأشواق معنوهة تبني بكفيها ظلام الغد

جوعانة تمضغ أيامها

كحارث المقبرة المقعد

عريانة الماضي بلا عزة تتوج الآتي

ولا سوؤد (١)

(١) محمد سعيد العباسي ، ديوان العباسي ، ص ٤١

(٢) صالح بيلو ، ورقات من الزيتون ، ١٩٥٣م ، ص ٥٣

(٣) محمد مفتاح الفيتوري ، أغاني إفريقيا ، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ، ١٩٦٧م ، ص ٣٤

وقد بلغ الشعر السوداني ذروة عالميته حينما شق طريقه للترميز والإيحاء وهذا مالم يتوافر من قبل فما هو الناصر قريب الله يبلغ عنده النيل مبلغاً آخر حينما يتحول النيل من مجرد رمز وطني إلى قيمة عليا هي استقلال البلاد :

لنشرب ماء النيل صفواً ونلتقي أقارب في شطيه يجمعنا الرfid

هو ابن ملوك الأرض من نسل يعرب ووارث مجد لا يضارعه مجد^(٢) ويلتف الشعر الوطني في فترة الحكم الإنجليزي المصري حول القضية التي هانت معها مصائب العالم وهي القضية الفلسطينية فقد بدأ الشعر السوداني الوطني يدخل مبكراً سوق المشاركة في القضية الفلسطينية يقول الناصر قريب الله ١٩٤٧م :

والى فلسطين القضاء بحاصب من ناره في كل يوم يقذف
أرض الطهارة منذ خط كتابها وبها ملائكة السماء تطوف
قد أقبلت تجزي العداة بمثله وترد كيد الكائدين وتصرف^(٣)

وبذا يكون الشعر الوطني في تلك الفترة قد عبر في الاتجاهات جميعاً فقد تحرك ضمن الإطار الإسلامي ، والإطار العربي ، والإفريقي . وكنا قد رأينا أن الشاعر كان يملك في هذه الفترة أدوات التعبير الجيد .

كان استقلال السودان في يناير من العام ١٩٥٦م والواقع أن السودان له أكثر من استقلال، فقد استقل من قبل عام ١٨٨٥م من المستعمر التركي المصري ولكن الاستقلال من الحكم الأوربي في العالم أجمع مثل الاستقلال الأخير لكل بلاد العالم . وقد كان هذا الاستقلال سياسياً آلت فيه مقاليد الحكم للوطن .

(٢) الناصر قريب الله ، ديوان الناصريات ، الخرطوم ، بوزارة الإرشاد القومي ، ط١ ، يوليو ١٩٦٧م ، ص ٤٣

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٥

جاء استقلال السودان بعد أن قدم الوطنيون ما يسعهم من تفكير ودهاء
وتدبير لذلك لم ترق فيه دماء ككثير من البلاد الأخرى . وربما دل هذا علي حسن
الإدارة والقيادة التي تصدق للعمل الوطني . كما أن قدرة الوطنيين رتبت الأمر ليخرج
بهذه الصورة الزاهية. فأنزل العلمان والمستعمرون شهود كأنهم يؤدون واجباً مختارين
في سلام وطمأنينة:

أحافظ سرنا وانطوى العلمان	ورابتنا النيلان يعتقان
وهل يرد المستمعر النيل إن طغي	ينجي بنيه وهو أحمر قان
وسال دم الأحرار فيه مطهراً	فليت الذي أودي الحماة سقاني
فما مصر كالسودان لقمة جائع	ولكنها مرهونة لأوان
ففي مصر تحرير وفي الهند منعة	وأحرزت السودان كل أمانى
إذا ما جهدنا سوف تخرج أرضنا	لنا ذهباً فالحر غير مدان
وأنا ومصر يارعي الله عهدا	صفيان بل ندان مؤتلفان (١)

فكان لابد أن يجى الشعراء الوطنيون الذين بذلوا في سبيل الاستقلال كل
جهدهم وفكرهم مذكرين أن مصير كل معتد هو مصير هكس باشا وغردون:

فخرأ بني وطني وإني شاعر	بالخالدات من المآثر يفخر
من مبلغ شهداءنا بدمائهم	بقيت بنا تلقي العداة وتتأثر
هكس تهافت في حبائل فكره	وتلاه كتشنر الكفور الأعور (٢)

هكذا فإن الغبن الذي صبر عليه السودانيون قرابة الستين عاماً بدأ يظهر في
قصائدهم الأولي. وليس ذلك فحسب بل عشية الاستقلال فمنهم من سخر من
الانجليز :

أترك في النيلين ملكاً وترحل	أقم فيه إنا عنه إذا شئت نرحل
تعجلت أم خفت صباحاً عرفته	فأجفلت فعل اللص والليل مجفل (١)

(١) توفيق صالح جبريل - ديوان افق وشفق - بيروت ، دار الجبل ، ط ١ ، ١٩٩١ م ، ص ١٠٤

(٢) محمد المهدي المجذوب - قصيدة عيد الحرية - ص ١٤٣

(٣) محمد المهدي المجذوب - نار المجاذيب - ص ٢٣٠

ولكن بعيداً عن السخرية ارتفعت آمال بنيه بغد زاه ناضر والتفاؤل يحدوزهم
من كل جانب :

يوم السيادة جاء للمجد التليد متيما
هو نعمة عطف الإله بها علينا منعما
يا من راي علم البلاد مرفرفاً متبسما
عهد المظالم والمساوى لم يعد متحكما
النيل ند نميره طعماً وكان كعلقما
والأرض صار أدميها روضاً وكان جهنما
قد أن أن نستاف أزهار الحياة وننعما^(٢)

فالتبيعة بكل محتوياتها من نيل وشمس ونخيل وأزهار ورمل كلها محبوسة
ورعينة أن لم يحررها الوطني ، وهي جمعياً مرتهنة للمغتصب إن لم يفك إسارها
الوطني .

يدعو رؤاى الغابرات فتبصر	وطني الذي أهوي لعيني مسفر
وأهل تسمع ما تقول وتبصر	فجر تخلق من إرادة أمة
شتي كما عكس الأشعة جوهر	ضاف توجهت المنى بضيائه
متموج فيها العباب الأسمر	والنيل قد ليس الضحي من خضرة
تحت النخيل حريرها يتكسر	والرمل من ذهب يشف مآذرا
خشناء تورق في الضفاف وتثمر	والزرع نور وعدة لسواعد
وبقيت بين خطوبها انتظر	صور عشقت لها الحياة مريرة
وطن يدوم به صباي الأخضر ^(٣)	إني وإن فت الشباب فإنه

لكن كثيراً من الشعراء عاد ليتحدث عن خيبة أمله حينما تفرقت الأحزاب
بالبلاذ عندما مال ميزان العدالة مدفوعاً بالمحسوبية فضلاً عن غرق الحكومات في
مستنقع الفساد مطوحة بأحلام أولئك الذين صنعوا الاستقلال .

(٢) مبارك المغربي - خداء الاستقلال ، الخرطوم ، دار العلم للطباعة والنشر ، ط ٢ ، ١٩٩٨م ، ص ٣

(٣) محمد المهدي المجنوب - نار المجاذيب - ص ١٤٣

فأسمع المجذوب أوشك أن يهرب من بلاده ناشداً عدالة ورحمة من بلاد غير
بلاده مستبعداً حدوث العدالة قريباً .

استدبر الوطن أنفاسي إلى وطن

فيه العدالة أخلاق ومرحمة وما السلاح علي قانونه رصد

هيهات ذلك أمل كنت أرصده عشرين عاماً إذا ما لاح يبتعد (١)

وآخر ينتظر خمسين عاماً لتَهطل سماء السودان بعد لاستقلاله بمطراً يبيل ما

يبس من مطامح وينعش ما ذبل من آمال :

يا سلام

هكذا ننطقها عند الحكايات العجيبة

والملمات الجسام

هكذا نطلقها ممدودة الألفات في الإعجاب

في أوج التأثر

عند فاتحة الكلام

هكذا ننشدها حلاً حلالاً من حكومات الحرام

ليس إلا إننا حقاً تعبنا

يا سلام

هكذا نحن انطباعيون

صديقون

تسري بيننا عدوي التعاطف سهلة

مثل التثاؤب والإشاعة والزكام

نغفو عن الجراد إن تعبت مفاصله

نحن لعهدنا الماضي

ونندم لبيتنا لم ننتفض

وكأننا ثور جني في حقل راعيه الهمام

(١) محمد المهدي المجذوب - نار المجاذيب - ص ٢٢٧

فكم اصطففنا بين أرصفة المطار لركبه الميمون

ها قد عاد قائدنا المفدي

يا سلام

وهذا شأننا خمسين عام

يا سلام (١)

هذا هو دأبهم لا يأخذهم اليأس إلا بمقدار ما يعودون آملين لا يأخذهم سوء
حكامهم إلا بمقدار ما يمحصونهم النصح والإرشاد ، لا يفقدون بارقة أمل تلوح إلا
بمقدار ما يرونها وراء الظلمة :

وعمائهم بيض تهل غمائماً في ظلها كرم يهش منضر

وقرى علي النيل الوفي برزقه ترضي وتؤمن بالقضاء وتصبر

معصومة في خلوة ميراثها لوح وآمال عليه تسطر

فغدت ترقص مغزلاً مترنماً وتعض عن مكر اللئام وتغفر (٢)

هذا هو معني الاستقلال في أعرق دلالاته رجل سوداني أصيل ناضر الوجه
هاشه أناس صابرون محتسبون يأتيهم رزقهم من وطن مستقل وأمرأة تأكل من غزلها
لا من مصانع الآخرين .

أيمان قوى ذلك الذي يحسه الشعراء الوطنيون بوطينتهم وشعبهم وقدرتهم علي
التحرير والاستقلال . ولعل في الشعب ما يدعوا للإيمان وما كان لهذا الشعب أن
يستقبل لو لا هذا الإيمان العميق .

أمنت بالشعب منصاعاً له القدر يملي إرادته قسراً فنتتصر

أمنت بالشعب عملاقاً تخلده أمجاده الغر والتاريخ والسير

في غمضة العين قد أجلوا مدافعهم أين الرصاص وأين الجيش والخطر

وبارك الشعب ميلاداً لثورته يعانق الأرض فاح أديمها العطر

واستقبل القدر المحتوم يدفعه لم يبق في القصر حراس ولا خفر

جيش البلاد قلاع الأمن صامدة في وجه طاغية قد كاد ينتحر

(١) عبد القادر عبد الله الكتيابي - المجموعة الكاملة - ط ١ ٢٠٠٦م - ص ٢٢٨

(٢) محمد المهدي المجنوب - نار المجاذيب ، ص ١٤٤

ألقى السلاح وقد رقصت كتائبه والجيش أصبح باسم الشعب يَأتمر^(١)
وقد كان الرهان باستمرار على الشعب. الشعب الذي يقاتل بدمه وبسلاحه
بروحه ، حاضر في أجندة كل الشعراء فهو دائماً ما ينيل وطنه مبتغاه .

أيها السودان قد لمحت آية الصبح من أمم
أرايت الشعب كيف سما روحه الوثاب للقمم
قاوم الأغلال في غضب ومشي للحق في شمم الهمم
وهو ماض في تحرره خائض في كل مقتحم^(٢)

هكذا استطاع الشعب أن يحقق استقلاله وأن يعبر عن فرحته التي لم تدم
طويلاً عند بعضهم فقد رأيناهم خائبي الآمال .

إن الاستقلال حمل أكثر من معني. فقد كان عند بعض الشعراء حياله
متفاؤلين لابعد الحدود ، وكان منهم من وصف نضال شعبه وما قام به من بطولات
أوصافاً خارقة واختلط معني الاستقلال عند بعضهم .

زحفت مواكبنا ... فقل لصحائف المجد استعدي

هذا حصاد القادرين علي الإرادة والتحدى

ولقد قدرنا رغم بطش الأجنبي المستبد

ولقد هزمننا كل ما في الأمس من ضعف وحقد

ولقد عقدنا في طريق نضالنا إكليل ورد

ياشعبنا وخطاك إعصار

وصوتك صوت رعد

وبيارق الشهداء فوق ثراك من جد لجد

والشمس حانية عليك تطل في تيه ووجد

ترنو إليك وأنت ثورة تائرين لخير قصد

لحياة شعب .. وانتقاضة أمة .. وبناء مجد

ولتصبح الحرية الكبرى

(١) الزين عباس عمارة - المجموعة الشعرية الكاملة - أبو ظبي - دار نيكيتو للطباعة - ط ١ - ص ١٧

(٢) الناصريات - الناصر قريب الله - ص ٧٢

طريقك دون حد
ياملهم الشعراء أروع شعرهم يوم التحدي
ما ذا أقدمه إليك
وأنت كل الشعر عندي (١)
كما أراد الشعراء الوطنيون - فخراً بثورة استقلالهم - أن يصدروها للآخرين
في الشرق كله :

يا أخي في الشرق في كل سكن
يا أخي في الأرض في كل وطن
يا أخاً أعرفه رغم المحن
إنني مزقت أكفان الدجي
أنني هدمت جدران الوطن
لم أعد مقبرة تحكي البلي
لم أعد ساقية تحكي الدمن
لم أعد عبد قيودي
لم أعد عبد ماض هرم
أنا حي خالد رغم الردي
أنا حر رغم قضبان الزمن
إن نكن سرنا على الشوك سنينا
ولقينا من أداه مالقينا
أو نكن عشنا حفاة بئسينا

فلقد ثرنا على أنفسنا ومحونا وصمة الذلة فينا (٢)
وقد حمل الاستقلال عند بعضهم معان سلبية فرأينا بعضهم يحن إلى أيام
الاستعمار .

وما وجدت لهم في النيل من وطن إلا التفرق والعدوان أوطانا

(١) الفيتوري أغاني أفريقيا - منشورات دار مكتبة الحياة بيروت - ١٩٦٧م - ص ٢٢٧

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٣

ملوحين بإعلام مزيفة تذوب كالشفق الغربي ألوانا
هل كنت أحلم بالأوطان آمنة وبالعدالة في النيلين قرآنا
حسبت أن جلاء الجند يعقبه صبح ألقى به السودان سودانا
ولا أزال وبى قيد أنازعه نيلاً وغاباً لدي روعي وثعبانا
يا قاتل الله أياماً صحبت لها صبرا جريئاً علي الجلي وإيماناً^(١)
ويقول أيضاً :

يا شعب ! شعبي من ذل ومسكنة وقد تحطم أروحاً وأبدانا
لقد سعينا وما نجزي علي عمل إلا كفافاً نقاسيه وإهواناً^(٢)

نستطيع أن نقول أن الاستقلال كمفهوم وطني عبر الشعراء من خلاله عن وطنية صادقة تحلوا بها في كل مراحل تنامي وتطور معني الاستقلال عندهم ابتداء من مرحلة الزهو والإعجاب به إلى المعاشية معه إلى الزهد فيه وحتى الانقلاب عليه. وسبب ذلك أن الحكومات المتعاقبة لم تكن قادرة علي تحد كالأستقلال غير أن الوطنيين من الشعراء يستطيعون دائماً أن يعيدوا بهاءه ورواه. وتلك هي الوطنية الصادقة التي يطرحها كثير من الشعراء في شعرهم فما يلبث أن تأتي علي البلاد فترة ينتظم السودانيون شعور طاغ بالوطنية ثم يرين علي قلوب الناس ومشاعرهم في فترة أخري شعور بالزهد ونبز الأستقلال وهذا يعطينا معني آخر لدور الشعراء والشعر في تربية شعوبهم تربية وطنية .

(١) محمد المهدي المجذوب ، الشرافة والهجرة ، الخرطوم ، دار التأليف والترجمة والنشر ، جامعة الخرطوم ،

ط ١ ، ١٩٧٣م ، ص ٢١٤

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢١٥

الفصل الثاني

الهوية

كل أجزاءه لنا وطن إذ نباهي به ونفتن
نتغني بحسنه أبداً دونه لا يروقنا حسن
أنا سوداني (١)

هاتان الكلمتان البسيطتان لم تكن نرمي من ورائهما إلى نسبة فرد سوداني وإنما دفعنا بهما لاستبطانهما قدراً كبيراً من الطاقة والإيحاء فهي لا تشبه أنا مصري مثلاً . فالعلاقة بين مصر والمصريين علاقة جغرافية عروبية إسلامية مسيحية فرعونية بينما أنا سوداني تتجاوز هذا التوصيف المعطي إلى توصيف مرتجى فنقع في كثير من الظلم إذا زعمنا أن الجغرافية وحدها يجب أن تكون إطاراً لوحدتنا . إذن نكون قد ألغينا الزنوجة فينا ولن يكون الإسلام وحده ما يشكل شخصيتنا إذن لوقعنا في التفرقة الدينية ولن يكون اللسان العربي هو الإطار الأوحده للغتنا إذن للغنا الأساسيات اللغوية ولمارسنا سلطاناً غشياً علي سواد عظيم .

فنحن لا نسلم من خطل القول إلا حينما نلتف حول القول آنف الذكر (أنا سوداني) وسوداني تختزن طاقة وحلولاً كفيلاً بخلق هوية مستقلة لا تتجاوزها العناصر واللغات والديانات والثقافات .

(وسوداني) ثقافة لم يجذر لها ، وفضاء كبير لم يترك الناس لينطلقوا فيه بل قعدت الأفكار البائته والمحاكمات والمرجعيات المتخلفة تزيد من جراح هذه الهوية حينما نتمسك بالجانب المظلم .

ولعل الصراعات التي كانت تنشب قبلية كانت أو دينية أو عرقية أو طبقية؛ كانت تحد لمواجهة الهوية المفتعلة ، وكانت تحدياً لوقف الخط القسري فلا بد للهوية أن يعيشها الناس مناسبة كالنسمة لا عصابة كالريح .

أن الذين يرون حرب الجنوب حرب غبن إجتماعي فإنهم يرمون إلى صحة الهدف ، وهو البحث عن هوية من الطرفين كليهما . فالحرب لم تكن حرباً فارغة، بل إنطوت علي موضوعية وعلي تصحيح لهوية بدأ السودانيون يشعرون بضرورة

(١) محمد عثمان عبد الرحيم - جريدة راي الشعب ، الأربعاء ٩ مايو ٢٠٠٧م

الالتفاف حول شعارات تحديد الهوية إن اللجوء للصيغة النهائية وإزالة الالتباس تتطلب تجاوزاً هذه الاتنيات وحينها سيصعد السودان إلى آفاق واسعة .

فحينما تكون المواطنة هي ما يتقاسمه الناس عدلاً سنكون خطونا الخطوة الأولى في الاعتراف بالهوية . ودونكم بلاد كثيرة جعلت من انتماء وانتساب شعبها لها هو الهوية .

ولما كانت الهوية من الوطنية في كل شيء ؛ أردنا أن نبحت من خلالها عن الشعر الوطني. إذ إن الشكوى من الفراغ هي تطلع إلى المثل. فالشاعر السوداني عاني ويعاني من التباس هويته فلا هو إفريقي ولا هو عربي. بل ظل يراوح تحت سياط هذين العنوانين وينفق عمره في (من أنا) .

ومن نتائج هذا الالتباس ظل السوداني ينهك نفسه بالأسئلة فيما يجب أن يكون قد وفرها لعلاقته الإيجابية بوطنه .

احتفل الشعب السوداني الوطني بالأسئلة حيال هويته. والشاعر إذ يستحضر هويته فإنه يبحث عن جذره الأول ، عن لغته الأولى ، عن طينته الأولى ، ورحمه الأول .

فإن أول ما نسجله علي الشعراء بسبب تنازع التيارات الوطنية الباحثة عن الهوية تأسيسه مدرستي الغابة والصحراء في الشعر السوداني وما تبعهما من اصطفاة دفع إلى خلق تيار تمثل في الصراع بين أصول الثقافة العربية المحافظة التي يدافع عنها المعهدين وبين الأصول المحلية إلى جانب الثقافة الغربية الوافده^(١) التي دافع عنها خريجو كلية غردون.

وتبعاً لهذا الاصطفاة عاش الشعر السوداني مضامينه فبينما كان من المؤمل أن يغوص الشعر بعيداً في الوطنية والتفاني في خدمة الوطن ظل علي الهامش يقاتل (من هو ؟) علي الرغم من كون السودان منطقة وسطي في التاريخ والجغرافيا . (منذ أن كان السودان وسطاً لتلقي الحضارات كمنطقة عبور بين غرب إفريقيا والجزيرة العربية)^(٢).

(١) عبد الهادي الصديق ، أصول الشعر السوداني ، دار جامعة الخرطوم ، ص ٤٨

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦١

أنقب في ثنايا غربتي عن طينتي والناب
والظفر السنين

أجتاز لغز الكهف أحياناً في جرار النحل ألقاها
لإخدش القيعان في هذا السحيق من العوالم والرؤي
هواها جذوة في القلب

هواها خطرة من بوح أعراق الجبال
يعود القبو يدوي فيه طبل الغاب (١)

هكذا ينصرف الشاعر ليكون مشغولاً بأناه

إن قاموس القصيدة لوحده يكون برهاناً صادقاً لتصنيف الشاعر في المعسكر
الأفريقياني. فضلاً عن ذلك فإن الشاعر بعد سبعة قرون عاد ليبحث عن جذر له
وينقب عن ذاته في الكهوف والقيعان والغابات والجبال والطبول وجرار النحل. ولا بد
أنه كان يعاني غربة حقيقية .

لم يكن الشاعر يعاني جهلاً بأصوله لكن المشكلة كانت دائماً في التيارات
العرقية التي رفدت دمه وظل حيالها شخصاً مبهماً دون عنوان .

من كانم وتمبكتو وفاس

زنوج واندلسيون

من عيذاب والحجاز واليمن

من الفسطاط والبحرين

بدو ، أوربيون ، إثيوبيون

وهنود بوجوه كتماثيل البرونز (٢)

لا ينطوي التنوع دائماً علي ضعف بل أن القوة كل القوة نكاد نلمسها من
خلال هذه الإفادات التي قدمها محمد عبد الحي ، والحق أنه كان واعياً في التعبير
عن المزيج الذي يشكله :

وفي طرف الصحراء كانت حقيقتي تتلالا بين الشمس والقمر (٣)

(١) النور عثمان أبكر - صحو الكلمات المنسية ، الخرطوم ، دار التأليف ، الترجمة والنشر ، ص ٨

(٢) محمد عبد الحي ، العودة إلى سنار ، ص ١١

كما نلمح البراح نفسه عند النور عثمان أبكر:

أن ملاك الرب أتاني ليلاً

شق الصدر وغرق في بحر دماء أنامله

فانتزع الخوف وريح اللعنة

فك لجام لساني وعمدني

وأراح جبيني حررني

من قهر الحاجة والزمن (١)

كان يسمي معاناته وسواد لونه قهر الحاجة. فهي مجلبة للخوف وهي استعمارة وقد تحرر إلى الحقيقة. الشاعر يذهب ليعود مرة أخرى للنقطة نفسها . وهكذا ظل الشعر الذي حاول أن يعبر عن ازدواجيته الواضحة ، يطبع الديوان الشعري الوطني ويسجل نقاطاً في التباس الهوية . يقول النور عثمان أبكر :

رجعنا دون أن ندري جذور حياتنا الأولى (٢)

اعتراف لايدانية اعتراف ، وخيبة في رجوع لم يعرف بعد يقينه واعتقاده رمزاً يلمع بين النخلة والأبنوس (٣) وليس حالة بأحسن من حال أخيه كلاهما رجع دون أن يكون قد عرف أصله وجذره .

وكان المؤتمر السابع الذي انعقد بكمبالا بيوغندا ١٩٩٤م والذي انفض وفي أوراقه الأخيرة أن السودان العربي المسلم لا ينتمي إلى إفريقيا كأنه قد قرأ من سفر الشعر السوداني ما يعضد من رايه وما يعتبره شاهداً (٤). على أن التيار الإفريقي يقابله تيار عروبي .

(٣) النور عثمان أبكر ، صحو الكلمات المنسية ، ص ٤٥

(١) النور عثمان أبكر ، صحو الكلمات المنسية ، ص ٨

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٤

(٣) محمد عبد الحي - العودة إلى سنار ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، ١٩٨٥م ، ط ٢ ، ص ٢٢

(٤) سلسلة دراسات استراتيجية - السودان والأفريقية - عبد الهادي الصديق - ط ١ ، الخرطوم ، دار جامعة

أفريقيا العالمية ١٩٩٧م ، ص ٤٢

باسم العروبة والاسلام والرحم وباسم كعبتنا العليا والحرم (١)
إن الصرخات انطلقت لدي منتسبيه بالتفوق لذلك يأتي التيار الإفريقي أكثر
احتجاجاً وتحدياً. أسمع معي هذه الصرخة التي أطلقها الفيتوري من قصيدته أنا
زنجي :

أنا زنجي
قلها لاتجبين ... لا تجبن ... قلها في وجه البشرية
أنا زنجي
وأبي زنجي الجد
وأمي زنجية
وأنا أسود
أسود لكني امالك الحرية
أرضي إفريقيه
عاشت إفريقيه (٢)

عند معظم الشعوب المعتدة بعرقها يكون الفخر بالعرق آخر المفاخر لذلك
نشأت الدعوة إلى الزنجية كمعادل للفخر بالعرق العربي الذي يملأ ذاكرة السودان
تاريخاً وسلوكاً وشعراً. إسمع معي محمد عبد الحي كيف يعود لنبعه السناري معتذراً
منيباً تائباً :

أنا منكم. أنا تائه عاد يغني بلسان
ويصلي بلسان
من بحار نائيات
لم تتر في صمتها الأخضر أحلام المواني
كافراً تهت سنيماً وسنيماً
مستعيراً لي لساناً وعيوناً
باحثاً بين قصور الماء عن ساحرة الماء الغربية

(١) مصطفى طيب الأسماء ، من جديد - الخرطوم - دار البعد - ط ١ ، ص ٢٨

(٢) محمد الفاتح الفيتوري - الأعمال الكاملة - ص ٣٨

أنا منكم

جرحي جرحكم وقوسي قوسكم

فافتحوا حراس سنار^(١)

على أن شاعراً آخر هو صلاح أحمد إبراهيم راح يشرب بالكاس نفسها من
زاوية أخري :

هل يوماً ذقت هوان اللون

ورأيت الناس اليك يشيرون ينادون

العبد الأسود

هل يوماً رحمت تراقب لعب الصبية في لهفة

وحنان

فإذا أوشكت تصيح بقلب ممتلى رافة

ما ابداع عفرتة الصبيان

رأوك فهبوا خلفك بالزفة

عبد أسود

عبد أسود

عبد أسود^(٢)

نستطيع أن نقول إن دعاة المعسكرين لم يكونوا يمتلكون الجرأة والدعوة إلى
معسكر في الحياض (سوداني) إلا القليل منهم ، وكذلك لم يكن التيارات شديدي التأثير
علي الحركة الشعرية الوطنية السودانية ، ولم يكونا عميقين في طرحهما فتعبير (أنا
سوداني) يصلح إطاراً للهوية السودانية .

وهذا هو الشاعر عبد العزيز سيد أحمد يتجاوز الجغرافيا والتاريخ ويعطي
نفسه الحرية في أن يكون وطنه العالم رغم أن الدعوة إلى عالمية الإنسان لم تتجذر
بعد في تجربتنا الشعرية يقول :

من الأرز ومن بغداد خذ زادي

(١) محمد عبد الحي - العودة إلى سنا ، ص ٢٢

(٢) صلاح أحمد إبراهيم - غاية الابنوس ، بيروت ، منشورات دار مكتبة الحياة ، ص ٤٩

ومن وهران من صنعاء تاريخي وأمجادي
وأمدرمان راياتي وأورادي
وطربي مرتقي التاريخ .. طر فوق النجميات
وعند مساقط الأعناب دالية الرسائل
وظف بي مدخل الحانوت من ظماً
لماء النيل ينبوع الحضارات (١)
وفي قصيدة عار عصرنا يقول النور عثمان أبكر :
ضحكت مثل يوسف العجوز خاطراً
يحيلني زجاجة ونافذة
لطفلة بلون القمح شعرها
وزرقة من ساحل العقيق في عيونها
أماه أنظريه أسودا
ضحكت وانجنيت
قبلت زرقة العقيق في عيونها
بكيت (٢)

انطوت أولاً علي التسامح الذي أبداه الشاعر ولا يكون التسامح إلا من ثقة في
النفس وسخرية من تسخيف لدعوة الآخر. الثقة في النفس التي يملئها الرضا بالواقع

كان التيار الداعي إلى الإفريقية ممثلاً لردود الفعل العروبي .
بني العروبة هذا يوم وثبتكم فلا تتوا فينال الإثم من ظلماً
موتوا كراما أو ابنوا صرح مجدكم فوق السماء فوقت الجد قد حزما
وقد مضي زمن كانت منازعنا شتي وكنا لدي أعدائنا قسما
واليوم صارت أمانينا موحدة هي العروبة تسري في العروق دما

(١) عبد العزيز سيد أحمد ، ديوان اتكاءة علي التأويل - ص ٣٧

(٢) النور عثمان أبكر - صحو الكلمات المنسية ، ص ٣٥

ومصر قلب ومن ينبوعها انفجرت قوى الحياة فهب الشرق ملئتما^(١)

فالعروبة صرح السودانيين ، العروبة تجري في العروق دماً

ثم انظر في موضع آخر :

أحباب نحن علي الزمن

وشباب نؤمن بالوطن

للعرب نمانا آباء

طابوا أعرافاً في النسب

العز كساهم رونقة

والمجد أتاها بالعجب^(٢)

الانتماء للعروبة والتي هي ميراث يتوارثه الأبناء الأبناء أن العروبة عز أن

العروبة مجد .

وكما يمثل التيار العروبي ارتكازاً علي ماض ؛ يمثل التيار الإفريقي اكتشافاً

للذات واستكناه للمستقبل :

كأنما في هذه العروق من طبولها المدمدقات بالآسي شراره

ورثها كما أحسها من دنائها

وعيشها وبرقها المخيف

من سهول الجنس ... والدماء .. والإثارة

اشم نكهة البكارة

منذ هاجرت بويضة الحياة عبر جدتي^(٣)

الإفريقية كشف ، استبصار ، استكناه للمستقبل . فهذه احساسات بكر يفترعها

الشاعر للمرة الأولى في عمره ليشم نكهتها ، وقد كان ينام من قبل علي احساسات

عروبية معطاة منجزة ، ليس للشاعر يد في خطها ورسمها ، ولم يشارك في وضع

(١) مصطفى طيب الأسماء ، فن وقلب ، الخرطوم ، المجلس القومي لرعاية الآداب والفنون ، ط ١٩٧٣ ،

ص ١٠٧

(٢) سيف الدين الدسوقي ، الأعمال الكاملة ، ١ ، ٢٠٠٦ م ص ٩٢

(٣) مصطفى سند ، ملامح الوجه القديم ، الخرطوم ، دار جامعة للنشر ، ط ٢ ، ١٩٩١ م ، ص ١٧

شروطها. فالعروبة مجهزة مسبقاً ، معدة بينما مثلت الدعوة للإفريقية كشفاً وحفراً
جديداً. والإفريقية تأتي من الجين ، من البويضة . يقول فراج الطيب :

فهم بما صهرتهم شمسها سمر^(١)

فالسواد والسمة بالشمس هنا لا بالعرق ، لا بالحين ، لا بالتاريخ بل

بالجغرافيا .

ترك ولا يزال يترك موضوع الهوية ليد الصدفة لتعالجه وظلت الحكومات

والمنظمات النافذة والمؤسسات لا تعيره كبير إهتمام .

إن الحكومات بيدها أن تشرع وأن تربي وأن تعلم وليست الهوية بالعصية علي

الدربة والمران والترويض وقد رأينا نتيجة إلتباس هويتنا الحروب والمنازعات التي

تنشأ في أطراف السودان . كما رأينا رغبة العالم وأكمامه في أرض السودان وإنسانه

.

(١) فراج الطيب ، دار السلام ، ص ٢

الفصل الثالث

الفداء والتضحية والحب

حب الأرض والديار والوطن هو من العقيدة في كل شي وليس أدل علي ذلك من اعتبار الهرب من المواجهة والمعركة والخذلان والتولي يوم الزحف شي أكبر فالتولي يوم الزحف من الموبقات السبع .

كما أن الشعر تعبير بالدرجة الأولى عن عاطفة الإنسان فإنه وظفها لا بعد الحدود لخدمة أرضه وبلاده ووطنه ومثل ذلك الشعرسموا ونبلاً عميقين .

إن صناعة الوطنية هي في الصميم إحدى مهام الشعر . فإحدى المؤسسات التي تدفع بالوطنية صناعة وانتماء هذا الشعر الذي يجد مبرراً كبيراً وسبباً وجيهاً في أداء وظيفته النبيلة هي حماية الوطن وإغناء الروح الوطني .

فقد ظل الشاعر السوداني وطنياً في كل مراحل السودان المختلفة وكان تيار الوطنية يزداد عنده بقدر ما يحتاج الوطن لذلك .

اتخذ التعبير عن حب الوطن ضرباً وأنواعاً فمن يعبر إشفاقاً إلى من يعبر حنيناً إلى من يعبر تضحية إلى من يعبر هياماً إلى من يعبر رمزاً إلى من يعبر احتجاجاً وتحريضاً إلى من يعبر اعتزازاً وافتخاراً. فهذه الدراسة تبحث في الطرق التي سلكها الشعراء في التعبير عن وطنيتهم .

سلوا صباً عليلاً مستهاماً يببت مؤرقاً يشكو السقاما

فلو سبحت به الأطياف ليلاً لأسبل دمه وبلاً سجاما

يهيم فلا الغواني تستنيه ولا أدري بمن غني وهاما

ومن عظم الفواجع أن توالي حبيباً لا يبادلك الغراما

أنا المفتون في حبي وقلبي ومن عاف المضاجع والمناما

وما استهوي فؤادي غير طيف رسمت لموطني يسمو مقاما

ومال زفرت ضلوعي نار حب ولكن نار من يبغي الصداما^(١)

لكانك أمام عاشق في محراب محبوبته يصلي ويتبتل. فهو صب مستهام ،

مؤرق ، سقيم ، يهيم ، يعاف المنام ، مفتون ، معني . هذا هو قاموس الحب والتشبيب والغزل لا أقل. وهكذا ارتفع بوطنه الكبير مفرغاً فيه ذاته. ولو كان كل

(١) أحمد عبد الله سامي ، ديوان الرمال ، القاهرة ، مطبعة محمد علي صبيح ، ١٩٦٣ ، ص ٧١

إنسان يبيت هكذا علي محبوبته ويصحو لكانت الأوطان أكبر بالحب ثم انظر
الاحتجاج كيف يخرج :

سكت أراقب الأحداث حيناً وعب الصدر فاهتاج الكلاما
وبين أناملي قلم رفيع يهز الدهر والجيش اللهما
علام الصمت والزهواء فينا فلا إلفاً تركنا ولا سلاما
يعز عليك يا وطني المفدي أري أهليك يبغون الخصاما
أري الأحزاب لا تسعي لإلف وأمرهم إلى البلوي ترامي (١)
ها هو هائج الكلام وها هو يحتج على الصمت ويحتج علي الزهو الزائف
ويحتج علي الخصام والأحزاب وبلواها ويحتج علي كل شئ كأنما يحمل كل بيت
لافتة معارضة .

ثم نرى الشعر الوطني ينطلق من أفئدة يملؤها الحنين إلى الأرض بكل
محتوياتها الجغرافية والتاريخية وذلك حينما يصور الشاعر وهو في البعيد بلاده كجنة
:

ودع همومك إذ تودي لندنا	وارحل إلى السودان قلبا آمنا
وأترك علي أرض المطار بطاقة	اكتب عليها بنس ذكرنا هنا
أن تذكرونا أنذكروا أحزاننا	ستظل أبد الدهر جرحاً كامنا
كم مرة راودت نفسي قائلاً	العود أحمد فليكن مستحسناً
ويعود يثنيني الرفاق فأنثني	ياليثني فارقتها متيقنا
وقصدت دار الأهل حيث أحبتي	أخوان صدق بالقناعة والغني
فليعلم الجيل الجديد كفاحنا	وليثني إن كان يقصد لندنا
وبيارك السودان في ساحاته	بلدا كريماً امنا ومطمئنا
إن لم تحس الفقر في جدرانها	فالفقد أعظم حين تسكن لندنا
قد كنت بالسودان عطراً فائحاً	ملا الوجود نضارة لن تقنتي
اهفو إلى دف الحياة يضمني	ويعيدني وجهاً صغيراً فاتنا

(١) د. أحمد عبد الله سامي - الرمال الضامنة ، ص ٧٢

لله درك يا بلادي فاسلمي فمتي أعود إلى الديار موطناً^(١)
بيكي حيناً كام فقدت وليدها لتوها. ما أعظم الشعر وأنبله حينما يكون
حاضراً في غربة الإنسان. إنه يدعو إلى الصدق في محبة الوطن حيث كل قطعة
من أرضك تستحيل إلى مقدس إلى ذكريات ، وإلى وطن كبير لا يتجاسر المرء علي
فراقه .

ثم يعطي درساً عميقاً لمعني الغربة التي يبيعها الناس أوطانهم فهو مهموم
بالغربة وآمن بالوطن، فالوطن عنده ثابت إنما المتحول هي الغربة ولو كانت إلى
لندن نفسها بلد التغرب والغربة قال الطيب صالح أحببت الإنجليز وكرهت
الاستعمار^(٢) ثم يترك رسالة لمن يفكر في الاغتراب عن بلاده فضلاً عن اكتساب
جنسية أخرى. إنه الدرس الذي يقدمه الشعر لمصلحة الوطنية والوطن والأرض .
ثم يفتح الشعر الوطني دروباً آخر يودعها التعبير عن وطنيته ، هو طريق
الاعتداد والاعتزاز والفخر :

أمنت بالشعب منصاعاً له القدر يملئ إرادته قسراً وينتصر
أمنت بالشعب عملاقاً تخلده أمجاده الغر والتاريخ والسير
في غمضة العين قد أجلوا مدافعهم أين الرصاص وأين الجيش والحذر
لن يرحم الشعب من خانوا قضيته باعوا الضمائر للشيطان وانتشروا
لن يرحم الشعب من نهبوا موارده وتخلفوا عن ركاب الحق واندحروا^(٣)
تلمح فيها التوعد لمن باعوا الوطن رخيصاً وتلمح فيها الرهان علي الشعب
الذي سيسترد ما باعه الخائنون هذا الوطن أجدر أن يصونه بالرفض والاعتزاز
والاعتداء والفخر :

مالي أراك تثير نار فؤادي من بعد ما ذر الزمان رمادي
وتعيدني ذكرى المودة والنوي عهد المحبة في ربوع بلادي
وطني إذا ذكر الجليس شجونه أمضيت ليلي في رحاب سهادي

(١) الزين عباس عمارة - الأعمال الكاملة ، ص ٧٠

(٢) الطيب صالح ، الأعمال الكاملة ، بيروت ، دار الحياة ، ط ١ ، ص ١٢٣

(٣) الزين عباس عمارة - الأعمال الكاملة ، ص ٥٤

ما كان مثلك أن يفارق داره كالروح قد خرجت من الأجساد^(١)
جعل من بلاده محتوى لذاته ، وجسداً لا يحيا إلا بالروح، ولا تحيا روحه إلا
بجسد البلاد. إنه حل في بلاده وتحل فيه بلاده. كما أن واجب ودين البلاد لا يرد
بالبعد قدر ما يرد بالإقامة فيه والمشاركة في وضع شروط حياته .
لا نستبعد أن يكون الشعر داعياً أساسياً في العودة والرجوع إلى أرض الوطن؛
وإذ ذلك فإن الشعر حياة فاعلة وإرادة نافذة :

دع الإحساس يتفجر فلا أشياء تملؤني
سوي عينيك يا وطني وحب فيك لا أكثر^(٢)
(دع الإحساس يتفجر) لأنه ليس هنالك ما يستحق الدرجة الأخيرة من تفجر
الإحساس ودفقه، وليس هناك ما يملأ فراغ روحه وعطشها سوي ذانك العينين فيك
يا وطني .

أن حب الاوطان ، إن لم يستبطن نضالاً وتحريضاً وتبشيراً واعتزازاً فهو حب
ضعيف. ولعل الشعر يستطيع دوماً أن يقدم استبصار ورؤية بعيدة المدى تحمي
الوطن :

وحدي منكسر الخاطري يوم العيد
تستهزي بي أنوار الزينة والضوضاء
تستهزي بي أفكار المضطربة
وأنا وحدي
في عزلة منبوذ هندي اتمثل أمي أخواني
وأبي التالي نصف الليل طوال القرآن
في بلدي أصحابي النائي
حيث يعز غريب الدار يحب الضيف
ويخص بآخر جرعة ماء عز الصيف
بعشاء الأطفال

(١) الزين عباس عماره ، ص ٦٧

(٢) المعز عمر بخيت ، الأعمال الكاملة ، ص ٤٧

ببليل البشر وبالأيناس إذا مارق الحال (١)

يمكن تجسيد الحنين بالكلمات تجسيداً دقيقاً انظر : أمي ، أبي ، أصحابي ،
بليل البشر ، عز الصيف ، كلها كلمات لعبت الدور الرئيسي في خلق الجو والمناخ
الدافئ. تلك هي بلاده تهض علي إرث عروبي الضيافة والقرى .

حملت صبايات الشباب فلم أحد حياً كحكك أحلي في الفؤادي ولا أندي
يا وطني أخلصتك الحب مبدأ لئن كنت لي قد كنت يا وطني مهداً
ويا وطني هذا ترابك في يدي تميمة مشغوفة أضن بها جداً (٢)
يحصي الشاعر إحصاء دقيقاً ويقدم كشفاً يعرض فيه مواطن الحب ، ويجزم
أنه لم يجد حباً في الأرض كحب الوطن .

كما يكون الوطن محل حب يكون محل تحريض التحريض ينهض مقابل حق
مضاع وصاحبه شيطان أخرض :

قومي الكرام وما قومي سوي نجب من آل يعرب أو من آل غسان
خذوا حقوقكم لا تياسوا أبدا ظلماً بظلم وطغياناً بطغيان
فنحن مهما مشي واش يفرقنا في الهم والجرح والآلام سيان
لا تطلبوا العون من ذئب يخاضعكم فليس ذئب الفلا عندي بمعاون
أفعي تلوت علي غدر وقد خطرت مثل الأناسي في أثواب إنسان
راحت تزجي وعوداً كلها كذب وما الوعد سوي ترياق ثعبان (٣)
تحدث عن قومه مادحاً، وعن عدوه محذراً. ثم يتحرك الشاعر الوطني في
الإطار نفسه معجباً ومفاخرأ بقومه ونضالاتهم :

نلتقيك اليوم يا وطني لقاء الأوفياء
قد تتادينا خفافاً كخيول الريح
في جوف العتامير تداعينا
لك يا أرض البطولات
وميراث الحضارات
نغني اليوم في عرس الفداء

(١) صلاح أحمد إبراهيم ، غاية الأبنوس ، ص ٥١

(٢) عزيز التوم منصور ، ديوان من محراب حبي ، ص ١٧

(٣) د. كامل الباقر ، من وحي القلم الفضي ، الاسكندرية ، المكتب المصري ، الحديث ، للطباعة ، والنشر ،

ها هنا يبتسم النهر القديم
لبعانخي وتهراقاً وللمهدي
وود حبوب والقرشي
وللموت الفدائي العظيم
نكحل اليوم مآقينا بمرواد الصلابة
وبإيمان كإيمان الصحابة
سوف نفديك دوماً
نغنيك هياماً
فلتتشح حراً أبيعاً في مهابة (١)

إن الرهان علي الجماهير مباشرة هو من تداعيات النظم السياسية الحديثة التي تجعل من صناديق الاقتراع وسيلة صالحة للحكم ، وهذا ينضاف للشعر الوطني لما بعد الاستقلال. فقد استحالت عند الكثير من الشعراء (الأنا) السلبية إلى (الأنا) الإيجابية التي تحكي عن الجماعة. فكلمات مثل الشعب، الجماهير، الجيل عرفت طريقها للقاموس الشعري الوطني في أعقاب تنامي الوعي والاحتكاك بالثقافات الأخرى :

من غيرنا يعطي لهذا الشعب معني أن يعيش وينتصر
من غيرنا ليقرر التاريخ والقيم الجديدة والسير
من غيرنا لصياغة الدنيا وتركيب الحياة القادمة
جيل العطاء المستجيش ضراوة ومصادمة
المستميت علي المبادئ مؤمناً
المشرئب إلى النجوم لينتقي صدر السماء لشعبنا
جيلي أنا
هدم المحالات العتيقة وانتضي سيف الوثوق مطاعنا
ومشي لباحات الخلود عيونه مفتوحة
وصدوره مكشوفة بجراحها متزينة
متخيراً وعر الدروب وسائراً فوق الرصاص منافحاً
جيل العطاء لك البطولات الكبيرة والجراح الصادحة (١)

(١) مبارك بشير ، ديوان زمن التداعي ، الخرطوم دار الثقافة للنشر والإعلان ١٩٨١م ، ص ٢٧

إذا قلنا إن هناك مضامين عصرية انطوت عليها القصيدة فإننا نعني هذه الحفاوة بالجمهور وهذه التراكيب والجمل النابضة بالحياة العصرية: لصياغة الدنيا ، تركيب الحياة القادمة ، ليقرر التاريخ ، القيم الجديد والسير ، جيل العطاء ، لينتقي صدر السماء لشعبنا ، وسيف الوثوق ، وغيرها وفوق ذلك لا يحرض ضد العدو ولكنه يحرض للوطنية :

أذعها اليوم قافلة شردوا وطوفها علي الدنيا بريدا
واجمع من طيوف الفجر دينا يزاحم مجدها الباقي الخلودا
بني وطني وما أدعو ضنينا إذا حض الفداء قصيدا
فلا ترجو من الأقدار خيرا فأبي المجد بها أعيذا
ولا تدعوا القضاء ينوب عنكم وخوضوا نار حقكم وقودا
وسلوا من يقينكم سلاحاً وتحت ظلاله اشترعوا البنودا
وكونوا كالعواصف ثائرات بروقاً خافتات أو رعودا
إذا الحق المضاع أثار يوماً تحد النار واقتحم الحديد(١)
إن استنارة وحث الجماهير واستنهاضهم هي الأدوات الشعرية لما بعد
الاستقلال حتى الشهداء في شعر ما بعد الاستقلال لهم دورهم :

أواه يا وطني الجريح
فقدت غريزتها الجراح
وآثرت ألا تتوح
من مات منا لا نشيعه
فكل الأرض للموتى ضريح (٢)
ومثله أيضاً :

لا تحفروا لي قبراً
سأرقد في كل شبر من بلادي

(١) محمد المكي إبراهيم ، الأعمال الكاملة ، ط ١ ، ٢٠٠٦م ، ص ٩٢
(٢) محي الدين صابر ، مجلة الخرطوم ، العدد ١٥ ، ديسمبر ١٩٩٤م ، ص ٣٢
(٢) محي الدين فارس - نقوش علي وجه المفازة ، الخرطوم ، المجلس القومي لرعاية الآداب والفنون ١٩٧٨م ،



سأرقد كالماء في جسد النيل (١)
كما يأخذ الشعر من الأرضي ، الواقع ، والمعاش ، والحاضر ؛ يأخذ أدواته
من المستقبل (الجنة) .

وطني أنت جنتي ونعيمي ومعيني علي الأسي ونديمي
في ثراك النضير أترعت أكوابي وأطفأت غلتي وجحيمي
كم سمرنا علي رحابك نشدو بفخار الأولي ومجد الأروم
يغمر القلب منك حب صفي وهو ضوئي لدي الظلام البهيم
يتحدي موكبه الساري يشق الغيوم تلو الغيوم (٢)
ومثله أيضاً :

وطني أنت ملهمي في صباباتي ووحى في ثروتي ووجومي
كلما هام في فؤادي غرام وهفا القلب للوصال المقيم
أرفع الصوت جهرة وأنادي وطني أنت جنتي ونعيمي (٣)
فالوطن جنة ، والوطن نعيم ، والوطن يلهم ، والوطن يوحي . فالشاعر هنا
ملهم وملهم .

إن الشعر الوطني قد استغرق كل المشاعر . فلا يكاد يترك إحساساً إلا
وتحرك ضمن إطاره . فالشعر كان هناك حاضراً كلما حزبت الوطن مظالم أو مفاصد
أو قدر أو تحزب أو تفرق أو طغيان فساحة الوطن مفتوحة للخير والشر .

وطني شقيت بشييه وشبابه زمن سقاك السم من أكوابه
قد أسلموك إلى الخراب ضحية واليوم هل طربوا لصوت غرابه
وطني تنازعه التحزب والهوي هذا يكيد له وذاك طغي به
ولقد يعاني من جفا أبنائه فوق الذي عاناه من أغرابه
بالأمس كانوا وحدة فتفرقوا فسطاً المغير بظفره وبنانه (٤)

(١) محمد مفتاح الفينوري - مجلة الخرطوم ، العدد الثالث ، ١٩٩٢م ، ص ٢٧

(٢) مصطفى طيب الأسماء ، لحن وقلب ، ص ١٠٧

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٨

(٤) يوسف مصطفى التني ، ديوان التني ، الخرطوم ، دار البلد ، ط ١ ، ١٩٩٩م ، ص ١٩

إن شعر ما بعد الاستقلال كله شعر مواجهه وتصدي. مواجهة القادم الجديد
المجهول ، التحديات ، وحيال ذلك كان يخوض معاركه معارك؛ البناء والصدق
فيرشد ويفضح وينادي ويصرخ ويضئ ويفتح شرفه هنا للأمل ومحضراً هناك
للمحاكمة. فكما كان الأمل حاضراً ؛ كان اليأس كذلك. وكان علي الشعر أن يعري،
أن يصلح ، أن يحاكم ، أن يقاضي. فالتركة كانت عليه كبيرة سيما وأن معاناته من
الوطني أكبر من المستعمر. فكان لابد أن يدعو للتضحية والتحرير .

قلبي النابض لك

ودمي الطاهر لك

كل ما قدمته لي فهو لك

ولتعش يا وطني

خالد فوق خلود الزمن

إنطلق حراً ... فبالحرية الأوطان تمضي للأمام

واقترح بالوحدة الكبرى دياجير الظلام

كلنا في شمس تاريخك يا سودان دوره

كلنا في وجه أعدائك يا سودان ثورة

وسنبني فجرك القادم في ظل السلام

ولتعش يا وطني

خالداً فوق خلود الزمن

دقت الأجراس هيا يا شباب

وأجعلوا الثورة للأمجاد باب

للمعاني قدماً

وارفعوها قدماً

ولتكن نهضتكم خير مثل

والهتافات بناء وعمل

والطريق العصر والشعب البطل

ولتتش يا وطني فوق خلود الزمن (١)

للشعر وظيفته ضمن سياق مرحلته. فهنا نطلع بلا عناء علي مشاكل ما كان الشعر ولا الوطن يعرفها قبل الاستقلال. فالشاعر ثوري يستنهض ما نام من مشاعر، والشاعر يهتف في الناس للبناء والعمل، والشاعر يغرى بالحرية ليمضي الوطن طليقاً من إيساره، والشاعر في سبيل ذلك ، يذكر بالمجد والخلود ويدق الأجراس ، ويدعو للوحدة. إن الشعر هنا دستور المرحلة :

أني تهيمني هواك ... شفني

ومسافر لك منذ كان النخل ينبت في الجبل

الزاد : خير الزاد

نوري : مقلتك ومن استتار بمقلتك فقد وصل

حتى ولو

رجع التراب إلى التراب

فالروح نحوك يا ديار أحبتي

لا البحر يحبس خيلها

لا الريح ، لا الطوفان يمنعها ولا كف الأجل

وأنا تهيمني هواك وشفني (٢)

إن وطناً كهذا لا يملك المرء إلا أن يعود إليه من غريته للنيلين للنسمات ،

للمراكب ، للشعاع الشمس :

تحن إليك أجنحتي وتهفو مصدقة لخاطرة التمني

فأين ضفاف نهرك عن جفافي وأين صراحة النسمات مني

وأشرعه المراكب خافقات تجاوب خاطرات بيني

وزيلني ندي النيلين حتى غدوت كطائر الجبل المسن

وأفدح ما خسرت شعاع شمس بأفقك فاتني قد ضاع مني

فقدتك فأفتقدت رفيق قلبي كفقده حمامه صفة التغني (٣)

ففيك تركت قائمة المعاني وروح رشاقة النغم المرن

وموهبتي وعافيت وحسي ونشوتي رنوة الرشا الأغن (٤)

(١) محمد مفتاح الفيتوري ، مجلة الخرطوم ، العدد ١٥ ، ديسمبر ١٩٩٤ م ، ص ١٠٧

(٢) عبد الله عبد القادر الكتيابي ، الأعمال الكاملة ، ص ١٧٤

(٣) المصدر نفسه .

(٤) عبد الله عبد القادر ، الأعمال الكاملة ، ص ٢٤٠

الباب الثاني

الرموز الوطنية في الشعر السوداني

الفصل الأول

النيل

النيل :

النيل الحقيقة التي تشبه الأساطير . النيل سليل الفراديس . خلق الحضارات علي ضفافه فامتدت إلى البعيد طبع شعبه بكل طباعه ، صدور واسعة وأيد ما تعودت القبض فهو عند المملقين زادهم :

يا نيل طبعك أن تسخو لذي ملق في كل يوم له عزة واللات
فإنك ترنو بعين غير مبصرة وأنت تصغي وفي أنني صمات (١)

وهو من قديم رمز الرجاء يوزع الرزق دون أن يبصرهم . فالجميع عنده سواء
يسمع شكوى الجميع وإن كان الناس يقيمون أود بطونهم منه فهم يقيمون أود روحهم
منه :

لا لن أخط رجال مسافر

حتى أبارح ذات يوم لندنا

الله درك يا بلادي فاسلمي

ما أجمل الخرطوم عند المنحني (٢)

المنحي الذي يخلق حصنا رقد به النيل الخرطوم كمشهد لا يماثل لمن يتأمله
ويعرف قدرة الله فيه .

تنساب في ضوء النجوم ملاحنا (٣)

هو النيل نفسه قصيدة مليئة بالأسرار . ومن يعرف النيل يعرف أبعاداً عميقة،
يعرف النيل كيف يطرحها عليك، فهو هادئ غيره وهو هائج ، فيعطيك هنا انطباعاً
ثم يعطيك آخر حال كونه تبدل .

وحيثما تنهض في الوطن الشهادة والشهداء يكون النيل حاضراً وشاهداً فيها
هو القرشي شهيد ثورة أكتوبر يطلع من فؤاد النيل ميمما شطر الشهادة والاستشهاد
ولأن النيل قوة تأخذ بزراعها العاتي من الطغاة ، كان مسعفاً للقرشي وهو يتحدى
الرصاص :

(١) محي الدين فارس ، نقوش علي وجه المفازة ، الخرطوم ، ١٩٨٨م ، ص ٨٣

(٢) الزين عباس عمارة ، المجموعة الشعرية الكاملة ، أبو ظبي ، دار نيكتو ، ص ٧١

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧١

ووجهك يا قرشي

يا عربي

يا زنجي ...

يا نوبي ...

ومضة بارق من شعبنا الخلاق

وميضاً من فؤاد النيل

غطي الدار

حريقاً أشعل النيران في الأعشاب

وكسر الأطواق (١)

إذن فالنيل شريك أصيل في دعم شعبه بالحرية حينما يكسر أطواق
المسجونين ، يشعل النيران في عشب الطغاة ويحرقه. فهو حاضر في معاناة الشعب
الممتدة حينما تنهض بنت النيل لتفضح عربي بلادها وتضمد جروحاً هنا وجروحاً
هناك، تستدعي فتجيب في العدل وفي الآهات في ليل اليتامي ، في كهوف البلاد
تحضر هناك لتعدل، لتضئ الكهف لأن النيل يؤهلها لذلك :

يا بنت النيل وبنيت النور وبنيت الورد

يا أخت الحلوي والسكر

يا ربة أفراح الأعياد

يا حق الصندل والعنبر

يا صاحبتني يا من تسأل

عن حال الشاعر ذا الصداح

عن حال الدار وما في الدار من الأفراح

عن حال الأرض وما في الأرض من الأزهار

الأرض لدي أهلي أملاح

وأنا ابن الأرض وفي أرضي كم من أسرار

(١) الدكتور تاج السر الحسن ، قصائد من السودان ، ط ١ ، ١٩٩٨م ، ص ١٤

وأنا من ترب بلاد الملح
لا تفاح ولا ليمون بل مرخ أو طلح أو سرح
النور بأرضي مثل الظلمة
والعدل بأرضي يزرف ومع الحسرة يستجدي
فالناس عن الآهات نيام
لا يوقظهم صوت لبطون يحملها قوم أيتام
وضمائر أهلي مثل كهوف قد ماتت فيها الأيام (١)
فتلك هي بنت النيل وهذا هو جدول عملها وهمومها
والنيل رمز الطهر. ولطالما كان حاضراً كلما أعلن الدنس حضوره. لكن ماء
النيل نفسه يعلق به أحياناً ما يستوجب التطهير ليبقي ماؤه للشرب والعبادة. فطهارة
ماء النيل هي طرد المستعمر من علي ضفتيه ، وطهارة النيل أن يبقي خالداً لساكني
النيل. فهو مقدس نبيل في مسابه .

خذني اليك أخي إلى بلدي علي أري الحب والأطفال والكرما(٢).
خذني إلى النيل ماء النيل أغسله مما ألم به أبكي عليه دماء
هو حرص محبيه أن يظل طاهراً من المستعمر الدخيل الغاضب. ولعلمهم
أدركوا ما يمثله النيل في مفكرة الذين يعتقدون أن الحرب القادمة هي حرب علي
مساقط المياه لذلك أرادوا أن يكون الشعب محترماً علي أن النيل لا يقعد بآمال عارفية
فإن مثل الطهر والنقاء فإنه مثل أيضاً المجد. فهو يرتفع إلى سامي الأفلاك والشهب
وحينها فعلي محبيه أو يرتفعوا بآمالهم وبأحلامهم ويتطلعهم إلى المجد الذي هو في
سمو الأفلاك :

وغاية المجد أن أسموا إلى فلك

مداره النيل يعلوا أرفع الشهب (٣)

(١) حافظ جمعة سهل ، مجلة الخرطوم ، العدد ٢٢ ، يوليو ١٩٩٥م ، ص ٣٧

(٢) حمزة حسين حمزة العبادي ، ديوان ميسون والمطر ، أبو ظبي ، ١٩٨٠م

(٣) الدكتور / سعد الدين فوزي ، ديوان وادي عبقر ، بيروت ١٩٦١م ، ص ٣١

وهكذا النيل في ضمير الشعب خليط من الوظائف والألقاب وخليط من الرموز والقيم وكما يتمثله القريب يتمثله البعيد المهاجر فيصبح للنيل معني آخر: أهجتم يراعي واستترتم خواطري ** * فضل خطاب من هوي النيل زاهر^(١) تحدثتم عن وحدة القطر والدجي ** * رفيق وفجر المجد داني الستائر وحللتهم ذاتيه القطر فأنتهت ** * إلى قدسها المأمول كل البشائر فهل تجعل الأيام منها حقيقية ** * وتصدق في الوادي أمانى شاعر هل الوحدة الغراء تبدو وتختفي ** * علي أفق السودان رمز التآزر

وينهض النيل بمسئولية أخري حينما يتصدي لربط شعبين ويسمها بوسمة ويطبعها بطابعة ، ويغذيها من كيانه. فقد جعل حضاراتها علي ضفافه أنه النيل عظيم الأنهر أطولها مقدسها. نمت الحضارة وإنماها وعاشت حوله وظل أميناً وفيماً في الخط الأمامي لصناعة الحضارة. وإن كان ثمة ما يقال فإن الحضارات التي طرزها النيل هي حضارات لا يمكن أن تتصارع بل يجب أن تمثل نموذجاً عظيماً يحتذي به الآخرون لا ليقولوا بصراع الحضارات بل ليقولوا بحوارها . ثم حينما تأخذ الغربية والجوع والعبودية سوداننا فإن الشعر يتذكر النيل وطناً أديماً وقوتاً وحرية .

اسبوع مر واسبوعان

وأنا جوعان

ولا قلب يابه

عطشان وضمنوا بالشرية

والنيل بعيد

والناس عليهم كل جديد

وأنا وحدي منكسر الخاطر يوم العيد^(٢)

(١) الدكتور سعد الدين فوزي ، من وادي عبقر ، ص ٤٢

(٢) صلاح أحمد إبراهيم ، غاية الابنوس ، ص ٥١

والنيل ملهماً موحياً ساحراً يمثل لعاشقيه ما يمثله وادي عبقر لمعتقديه فهو
يوشي ويستوحي لأنه يعطي هكذا إن سنل وإن لم يسأل. كيف لا والعاشقون قد
منحوه اخلاصهم وإيمانهم:

وقفت يانيل استوحيك ألحاني ** وقد وهبتك إخلاصي وإيماني
وأهيم يا نيل في واد جريت به ** سحراً ووشيته من كل ألواني^(١)

يقدم الشعر هنا تنوعاً رائعاً لمصادر الالهام والإيحاء عند محبي النيل والبطل
والبطولة حاضران في دفتر النيل فالبطل بالمعني الدارج والمتداول يحرس يفدي ،
يضحي ، لكن هنا ومع النيل يفرد جناحاً وواحة وظلالاً فالنيل عند الوطنيين في
الشعر كوردة تعطي لأكفر أشة تأخذ وظل النيل وفيماً لهذه العلاقة الجدلية بينه وبين
شعبه :

ما عاش بيننا إله

ولم يكن نبياً

ولم يتكئ علي سلالة وجاه

بل كان مثنا يعانق الحياة

وكان قلبه الكبير واحة ظلال

للنيل والنخيل والأطفال^(٢)

لذلك سيعطي الحياة إسداء ورداً للجميل كنا نللم الحياة من مياه النيل^(٣)
(وجعلنا من الماء كل شي حي)^(٤) يعطي ويوزع الحياة لمعتقيه ولمحبيه وهم حوله
وكذلك يعطي البعيد في الجغرافيا والتاريخ ويساهم في صناعة الحياة والنضال. كذلك
لم يتكاسل حينما كان العالم مشغول بثروات أفريقيا التحررية لم يتكاسل أن يبعث
للممبا شعراً وموقفاً :

يا لوممبا

(١) الدكتور سعد الدين فوزي ، من وادي عبقر ، ص ٦٧

(٢) صلاح أحمد إبراهيم ، غاية الابنوس ، ص ٢٢

(٣) مبارك حسن خليفة ، مجلة حروق ، جامعة الخرطوم ، العدد الرابع ، ص ٤٤

(٤) الآية رقم (٣٠) من سورة الأنبياء

ها هنا في أرضنا السمرء شاعر
عريد الإنشاد في جنبه وانتالت مشاعر
صاغها النيل غضوباً هادراً
من فؤاد تائر لاقى فؤاداً تائراً (١)

وهنا مثل النيل الثورة الإفريقية التي حررت إفريقيا من الأبيض ويكون النيل
كذلك رمزاً يحتذي به السودان حيناً لا يخلقه إلا النيل في أرحام عاشقيه :
ولما بكى الهندي حين تكاثرت * * عليه جيوش الهم شوقاً إلى الهند
تذكرت أوطاني وما كنت ناسياً * * ولكنني قد زدت وجداً علي وجد
كلانا أخوة أحن لقطرة * * من النيل والهندي يشتاقي للسند (٢)

والنضال في آسيا وقصة الهند العظيمة درة التاج البريطاني يسافر إليها النيل
مؤازراً أخاه في السند ولذا يكون النيل عالمي الهموم والأحلام. كما يحزر هنا ،
يشارك هناك فانظر لهذا النداعي الذي رسخ في الذاكرة السودانية. إن لكل وطن ماء
يساوي النيل ونهر يضارعه. وبطل السوداني العاشق لبلاده في حاجة ماسة لجرعة
ماء تزوده في الغربة وكأنما هي تعويذة من الغربة والهجرة .

أرجعوني لبلادي قد تمادي اليوم حزني
وأنا الصادي لماء النيل أين النيل مني ؟
أرجعوني كل يوم هنا يمضي هدر
ما لقلبي من مياه في سوي النيل وطر (٣)

فحينما ترتفع قيمة النيل إلى القلب والذهن والفكر يعني هذا أن الذاكرة الشعبية
قد شكلها النيل بتياراته كلها. والنيل ينهض بمسئولية كبيرة مسئولية أن ينتسب له
شعب بل شعبان هما شعبناً وادي النيل لذلك حاولت ذاكرة الشعر الوطني أن تجعل
للنيل دور مقرر التاريخ ومغيرة. كما ينهض بذلك الزعماء. معيره فالتحديات التي
واجهها الشعب كبيرة، وكان النيل يتصدي لها. فإن قلت الكفاح فإن النيل يجب أن

(١) مبارك حسن خليفة ، مجلة الخرطوم ، ص ٤٥

(٢) الدكتور مصطفى عوض الكريم ، السفير ، الخرطوم ، الدار السودانية للكتاب ، ١٩٧٢م ، ص ٣٥

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤

يحيط ويحاط بهذا الأمر بل يوكل له. وإن طلب الشعب رغد العيش وهنيئه فالنيل متكفل بذلك. وإن كنت تفتش عن أمانيك فالنيل يضمنها لك .

أ شباب وادي النيل إن بلادنا ** تبغي الكفاح بهمة وتوقد
أ شباب وادي النيل إن امامنا ** أمراً نرجيه لعيش أرغد
أ شباب هذه الدار إن وارعها ** قوماً أمانى روحهم لهم تنفذ
هذه أمانة أمة بيمينكم ** صونوا الأمانة بالقلوب وباليد (١)

أنه الشباب الذي انتسب لوادي النيل. لذلك فإن النيل لن يخذ له وهو لن يخذل النيل. ولأن السودان لا يرضي أن يضم النيل إذ أن ضيم النيل هو ضيم لشعبه ولأمتة ولساكنيه:

غضبت لما رايت الشط تسكنه من دون قومه شذاذ وآفات (٢)
ثم إن النيل يستحيل ألواناً وأنعاماً :
يا موطني موطن الأجل
يا موطن الأبنوس والصندل
هل في الدنيا يا سيدي
أحلي من نيلنا

ينساب تاريخاً بين الشذي والمخمل (٣)
وأكثر ما نجد النيل حاضرا لدي المهاجرين فقد أودعوه أهليهم وديارهم
وأحلامهم:

ذكرت ضفاف النيل روجي تحدر دمع عين في الوساد
وأني سرت عن وطني فإني أراه دائماً حولي وعادي (٤)
لنه يحمل للناس كفايتهم :

(١) الدكتور أحمد عبد الله سامي ، الرمال الضافية ، ص ٣٧

(٢) محي الدين فارس ، نقوش علي وجه المقارة ، ص ٨٣

(٣) سيد احمد الحارذلو ، أغنية إلى يافا ، بيروت دار العودة ، ص ١٩٨

(٤) الطيب محمد سعيد العباس ، ديوان العباسيات ، دار البلد ، ط ٢ ، ١٩٩٩م ، ص ١٧

والنيل يحمل النضار من قرون ^(١) ولم نزل نري النيل يربط بين شعبين هما
الشعب السوداني والشعب المصري ولا مشاحة في ذلك إذ إن الحضارة التي غزت
مصر نشأت جنوب الوادي أول ما نشأت في مروي ثم راحت تكبر وتتسع حتى
بلغت أوجهاً في شمال الوادي غير أن سعة صدر النيل راحت تحضنها آخر:
وإذا ما شكى من الأرز فرع أجدب النيل والصفاف الخصيبة ^(٢)
هكذا النيل خالد باق ما بقي إنسان السودان .

(١) جيلي عبد الرحمن ، الجواد والسيف المكسور ، دار البلاد ، ط ٢ ، ١٩٩٨م ، ص ٣٧

(٢) الطيب محمد سعيد العباسي ، العباسيات ، ص ٢٧

الفصل الثاني

المكان في الشعر الوطني السوداني

مثل المكان في الشعر الوطني السوداني حيزاً كبيراً. إذ إن الاستقلال نفسه لا يمكن أن يكون معلقاً في فراغ. فقد ارتكز الاستقلال علي ١٩٥٦م زماناً وعلي السودان أرضاً ومكاناً. فقد فعل المكان عبقريته مثلما مثل جبل أحد في ذهن المسلم مقدساً ملهماً. فالأمكنة السودانية التي مسها الشعر السوداني مثلت تنوعاً رائعاً للوطنية السودانية .

إن الأودية والخيران والجبال والغابات والسهول والوهاد والبقاع مثلت في السودان تضاريساً ومناهضة وتصدد. وهذا المزيج جعل من المكان عنصراً من عناصر الوطنية النافذة .

قدم السوداني بتفانيه وإخلاصه قرية ومدينة ووادي وسهلاً وبقاعاً قدمها كقربان للوطنية وشاهدا علي الوطن فقد كان وفيّاً إذ أن تذكر المكان هو من صميم الوفاء .

قفا نبك من ذكري حبيب ومنزل

هم وقفوا وبكوا بين مدنهم وقراهم. هذا وقد مثل المكان رقماً في معادلة المناهضة والتعمير والتغيير والرفاه .

وقد زحرت الذاكرة السودانية بالصور الوطنية الحافلة التي تعطي أمدمان زيادة وسيادة في الوطنية. فهي البقعة التي حجلت فيها خيول المهدي عشية حررها من الأتراك ، وهي المدينة التي شهدت أُنديتها ومنتدياتها صناعة الاستقلال السوداني . ثم أن المكان مثل أما رؤوما حينما تشتد النكبات يلتجئ اليها الخائفون .

فها هي الخرطوم - المدينة السياسية - تمثل رئة البلاد التي يتنفس بها الوطن هواء نقياً وأن غردون تحطم بين إدراج قصرها .

خرطومنا يا رئة السودان

روحي ساجدة

أنا فوق نحرك كالرضيع ممدداً يا والدة

أنا جاهز إن رمت روعي

فهي عندك ساجدة

يا أمنا ... قلبي إليك

ولن يكون لواحدة (١)

لذلك سننظر في المواقع التي تمثل بعداً وطنياً وإحياء نضالياً وقيمة وطنية:

ولذلك حين عبرت البحر إلى السودان

غنيت سعيداً كالأطفال

ونسيت حلاوة طعم المال

ورجعت أغرد بالأفياء ، بكل مكان

وركعت أقبل أم درمان

هذي العاصمة الأنثي

أهواها مذ كنت غراماً في عيني أُمي وأبي (٢)

إنها الجاذبية ، عودة الإنسان الي نقطته الأولى. وقد مر بنا أن الهجرات التي قام بها السودانيون بحثاً عن العمل والمال لم يكن في مقدورها أن تصنع لها هدفاً غير ذانيك الهدفين فكانت العودة قوية ألزمت البعض انطباعاً عن الهجرة التي كأن لم يقل عنها الشافعي بالفوائد الخمس غرد غني. إن الحنين إلى الأرض السودانية يربض في جوف كل سوداني مهاجر .

هذا قدرتي إما أن أعشق أنثي للإنسان

أو أعشق أنثي عاصمة تلك المحبوبة ام درمان (٣)

والخرطوم – هي الأخرى – لا تتفك محل غزل وطني وتظل أمدوحة ودرساً وطنياً فقد مثلت أملاً للوطنيين الطامحين، ومهداً للعلم لمن يختار طريقه ، وموقعاً يزخر بالجمال لكل مرتاد وعاشق:

خرطوم يا أمل الشباب لمن تقدم أو تأخر

خرطوم مهد العلم والأخلاق والشعب المظفر

الزهر حول رياضك الخضراء للعشاق منبر

(١) سيد أحمد الحارثي ، ديوان الخرطوم ، ط ١ / ، ص ٧٥

(٢) سيف الدين الدسوقي ، الحرف الأخضر ، شركة دار البلاد للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ٢ ، ١٩٨٢ م ،

ص ١٩

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٩

والنيل حولك قد تحدر بالخيرات يذخر

أهواك يا أرض الجدود وإنني بهواك أفخر (١)

ثم إن شاعراً آخر يربط وطنيته بالصور التي رسمتها ذاكرة الطفولة لمدينته :

قلبي هناك تركته

طفل يغازله الجمال

يعدو وراء حمامة

ويلعب في نفضات شال

في الطنضبات معلقاً

خلف الشياخ بلا كلال (٢)

ناوا قرية صغيرة في أقصى الشمال تستدج شاعراً للوطنية والوطن إنها

عبقرية المكان ، إنها وطنية المكان . فالوطنية زمان ومكان .

وكما كانت أم درمان مدينة صنعها التاريخ النضالي لدولة المهديّة ومن ثم

نضال الاستقلاليين باندية خريجها؛ فإن سنار مثلت الخط نفسه بأعرق وأقدم تاريخاً

فهي في خاطر الوطنيين المدينة الأولى والدولة البكر ، مصير السودان وصرخته

الأولى عند محمد عبد الحي وهي أرض الميعاد:

ساعود اليوم يا سنار

حين ينمو تحت ماء النيل أشجارا

تعري في خريفي وشتائي

ثم تهتز بنا الأرض، ترقص لهيباً أخضر الريش

لكي تنضج في ليل دمائي (٣)

ثمرا أحمر في صيفي ، مرايا ، جسراً ، حلامه تصعد في الصمت

(١) مهدي محمد سعيد ، الطين والجوهر ، المجلس القومي للآداب والفنون ، ١٩٨٩م ، ص ٦٠

(٢) سيد أحمد الحارذلو ، ديوان الخرطوم ، ط ١ ، ص ٧٥

(٣) محمد عبد الحي - العودة إلى سنار ، ص ١٧

سنار في ذهنه سيدة العالم ، مدينة تأهلت ككل المدن العالمية وقاءً ضد ما
يبتزّي به العالم من عنصرية. فقد مثلت سنار البوتقة والمنجم الذين نضجت فيهما
الهوية السودانية الكاملة وهي دائماً مصدر الحنين لأرض الجدود :

ساعود اليوم يا سنار ، حيث الرمز خيط
من بريق أسود بين الذري والسفح
والغابة والصحراء ، والثمر الناضج ، والجزر القديم
لغتي أنت

وعرق الذهب المبرق في صخرة زرقاء
والنار التي تجاسرت فيها علي الحب العظيم^(١)
هذه هي سنار (السودان الأول) خليط من كل هذه المتناقضات والتمثالات
في الخريف والشتاء ، في السفح والجبل ، في أخضر الريش وأحمر الثمر ، في
الغابة والصحراء .

لكل هذا الطيف الإثني يراها موئله الذي يشبهه ليخلق منه هوية واحدة ليخلق
منه إنساناً واحداً ليس شمالياً ، وليس جنوبياً ، وليس عربياً وليس زنجياً ، وليس
أبيض وليس أحمر لذلك قال :

فافتحوا لي حراس سنار

افتحوا للعائد الليلة أبواب المدينة

افتحوا اليلة أبواب المدينة

لأنها مدينة الهجرة التي سيستطع منها نور السودان والهوية الجديدة سنار
تنهض بالعبء الأكبر من بين وصفاتها لذلك كان شرطها - سنار - ألا يكون
العائد ممن يحملون هوية مزدوجة .

بدوي أنت ؟

لا ...

من بلاد الزنج ؟

(١) محمد عبد الحي ، العودة الي سنار ، ص ١٩

لا ... (١)

هذا هو الدور الأخير في مسرحية الهوية السودانية لا بدوي ولا زنجي بل سوداني. ويرد الشاعر علي الاستجواب في حدود وسواحل سنار . بأن هذه العودة هي الأخيرة وأنه جاء بعد أن طهر نفسه من كل انتماء عدا إنتمائه للسودان جاء تائباً ونادماً ومعتزلاً :

أنا منكم تائه عاد يغني بلسان

ويصلي بلسان

من بحار نائبات

لم تتر في صمتها أحلام المواني (٢)

جاء بالفعل من صراعات الهوية ، من الجغرافية والتاريخ الظلومين جاء من بحار نائبات ليسترشد بفنار لتدله علي جودي السلام والأمان .

كافراً تهت سنينا وسنينا (٣)

تاه في ليل غربته ، تاه في غابة لغته ، تاه في لونه ، تاه في دروب هويته ولكنه وجد أخيراً سنار موئلاً وملجأً وشاطي أمان وحينما طال وقوفه خارج السور ، طفق يتوسل ويلح في الطلب .

انا منكم

جرحي جرحكم

وقوسي قوسكم (٤)

وأخيراً

يفتحون له ، يفتحون له وطنه ، هويته

إننا نفتح يا طارق أبواب المدينة

إن تكن منا عرفناك ... عرفنا وجهنا فيك

(١) محمد عبد الحي ، العودة إلى سنار ، ص ١٩

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٢

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٣

فأهلاً بالرجوع (١)

في هذا الفضاء الواسع الذي تمثله مدينة سنار لم تكن مجرد مكان احتضن
أحدثاً عابرة بل كانت تمثل الممثل الأول ، والبيت الأول ، والجزر الأول ، ولذلك
جاءت عودته صادقة .

إن ما دفع به الشاعر في سبيل هويته قد صدر سنار كمدينة تقوم علي
كتفيتها أعباء المستقبل .

هكذا فإن المكان جندي ومفكر يلعب دوره الوطني بفاعليه ومسئولية فما هي

واو :

قالوا طغاة في رباك تحرشوا * * ودوي الرصاص بأمن الآفاق
ونسوا عهداً في الحياة تضمنا * * يا ويحهم صاروا بلا أخلاق
تلك العصابة إن رمتك فإنها * * عاشت علي تقديس كل نفاق (٢)

عاشت المدينة المعاناة الأولى التي تخلقت فيها الأجنة السودانية. فواو مكاناً
جنوبياً مثل ضحية حرب الجنوب دفعت الضريبة دماً قرابين للهوية السودانية. فحرب
الجنوب ليست حرباً فارغة بل يتصل موضوعها فيما أثارته مدينة سنار حرباً قامت
لا لتأخذ فحسب كفراشة بل قامت كذلك لتعطي كوردة .

أحياناً تجنح الوطنية ليتمثل شاعر إقليمياً بحاله محلاً لأشواقه وذكرياته

المجد للإنسان في الريف البعيد

ها أنت مزقت الليالي السود والجهل الحقود

ها أنت قيثار يضج رخاوة اللحن الجديد

جددك إذ نسبوا إليك الجوع والفقر المهين

يا أنت يا أحلي بقاع العالمين

يا كنزنا المفقود والدر المصان

يا منبع التاريخ يا بلدي الحبيبة كرد فان (٣)

(١) محمد عبد الحي ، العودة إلى سنار ، ص ٢٣

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٦

(٣) فضيلي جماع ، مجلة الإذاعة والتلفزيون ، العدد ١٤ ، ١٩٨٦م ، ص ١١

هكذا التاريخ الذي ظل الشاعر السوداني يذكر دقائقه وأشياءه الصغيرة في كل ما جري تحته فالسوداني يعني بالماضي فيما يفكر ويكتب :

أتيك رغم تباعد الزمن الأسيف

وأصوتك مفازتي

وعدي يضيع علي حورايبك القديمة

والمدى عشرون عام

يتكسر الشوق القديم علي مواقده

وتتهار العزيمة

بارا تمدين الوشائج للغريب

وأنا فتاك

ينوح في قلبي هواك

ويستريح

علي أغانيك الحزينة (١)

علي أن الشعر الوطني الذي سمي المكان مسرحاً تتضج فيه الأحداث أفكاراً هو من الوطنية في كل شي فتوريت تصبح ساحة معركة ترسم المستقبل

توريت تفتح في مطار الليل صندوقاً من اللحم الجريح

توريت ترفع شارة البابا ولا فتة المسيح

وتدق بالكفين شرفة غيمها الصيفي

تتبح والأسى يلج الكهوف السود

يرسم كل واجهة ضريح (٢)

في حرب وصفت بأنها أطول حروب إفريقيا وكما جاء الموت حاراً والصبر

حاراً والفجيرة حارة جاءت توريت كمكان اتخن بالجراح أفجع بالموت.

في كل زاوية جريح وشهيد ، وأطماع تنهض علي مائة ساق لذلك كان

الباكون والفاقدون كثر .

(١) فضيلي جماع ، مجلة الإذاعة والتلفزيون ، العدد ١٤ ، ١٩٨٦ ، ص ١١

(٢) مصطفى سند ، البحر القديم ، ص ١٧

مليون قلب في بحار الدمع طافية تصيح
هذا جناي توسدته شوارب الديوان ، غطته الدماء
حتى بنات الماء عرت جلده المحروق
بلت فوق جبهته الغطاء (١)
اي فاجعة أكبر واي كارثة أبشع :

هذا جناي سحابة سحت بجوف البيض مسرفة العطاء
عيناه سابحتان فيروزا مضاء
وقميصه الدامي طعام الريح دار بكل ناحية
وعاد بلا صدي (٢)

برغم الفجائع إلا أن الأمل يخرج منها أبيض
توريت تدفن في المساء طغائن الأحقاد
تولد من جديد

تقف المساجد والكنائس في برود التبر
تضحك للصباح البكر والفجر الوليد (٣)

وتأسيساً علي ذلك فإن المكان مدينة وإقليماً وريفاً وقرية توزع الهم الوطني
جنباً إلى جنب بمحاذاة الأشخاص والأحداث. فقد عبر الشعر الوطني بعد الاستقلال
عن آماله ومشاكله وطرح حلولاً لها من خلال المكان فإن قلت قضية الهوية فقد
كانت المدينة حضوراً بهياً ، وإن قلت الحرب فإن المدينة اختزلتها كلها وأحالتها إلى
فجر جديد .

وصل الأمر في مدينة أم درمان إلى حد بعيد بين شاعر أبدلها بباريس وآخر
لم يجد مكاناً في الدنيا يضارعها. فالأول جعل منها محل خمول وضجر :

(١) مصطفى سند ، ص ١٧

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٩

لا حبذا أنت يا أمدرمان بلدا ** أمطرتني نكدا لا جادك المطر
 من صحن مسجدها حتى مشارفها ** حط الخمول بها واستحكم الضجر
 ولا أحب بلادا لا ظلال بها ** يظلها النوم والهجليج والعشر
 ولا أحب رجالاً من جهالتهم ** أمسي وأصبح فيهم آمنة زفر
 أكلما قام فيهم شاعر فطن ** جم المقال نبيل جد مبتكر
 ضاقوا بهمته واستدبروا جزعاً ** صم القلوب وفي آذانهم وقر
 أكلما غرست كفي لهم غرساً ** كانوا الجراد فلا يبقي ولا يذر
 المظهرون بياض الصبح خشيتهم ** والمفسدون إذا ما صرح القمر (١)

هذه هي أم درمان في شعر محمد الواصل مصطفى أحد المتغربين وقد نالت
 منهم الغربة منالها فعادوا منها ولم يروا في بلادهم ما يشحن القلم إنصافاً وهذا من
 المواقف النادرة أن ينزل الشاعر سباً لارضه وموطنه :

نشدتك الله هل في الأرض متسع ** غربا إلى فاس أو شرقاً إلى الصين
 شرقاً إلى الصين أو من دون ذا بلد ** فيه أهدمت أو قبر يواريني
 فقد حبوتك يا أمدرمان من كلمي ** حكمة موسى جلاها نطق هارون
 لكن وجدتك يا خرقاء معضلة ** جمعت بين شريف الفعل والدون
 حيناً يطوف ببيت الله ساكنها ** سعيأً وحيناً علي اعتبار لينين (٢)

وقد كان صادقاً في جميع طروحاته. فام درمان هي جماع لكل المتناقضات
 فهو يقدم لنا المجتمع السوداني بكثير من الصراحة والشجاعة ونحسبه إذ يفعل ذلك
 يقوم بدور الرائد الذي لا يكذب أهله .

(١) محمد الواصل مصطفى ، أمدرمان تحتصر ، الخرطوم ، ١٩٨٩م ص ١١

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣

قومنا إن ابعدت أبقارهم ** مسحوا الجدران من روث البقر
فلت لا أرضي بما قد شيدوا ** كيف يجلو الدار مفتون البعر
هل رايت الطير تبني عشها ** حيث تفني الشمس أفنان الشجر (١)

فنحن نظلمه إذا زعمنا بعدم وطنيته فهو وطني بأسلوب مختلف كأولئك الشعراء الذين ساحوا في الفلوات يعيشون مع الحيوانات فقد رأوا في مجتمعاتهم فساداً وظلماً نأوا بأنفسهم أن يكونوا شركاء فيه فهربوا بحثاً عن الحياة الصادقة والبريئة حياة الحيوانات كالصحبة التي نشأت بين الذئب والفرزدق .

ما كان نصحي سوي نور يضيء لكم ** يا معشرا حطه الأملاق والملق
لقد سئمت رجالاتي إن دعوت إلي ** الجلي تاونوا وإن كان الخنا استبقوا
ولقد سئمت نساء صار دينهن ** المشي والسعي حتى ضجت الطرق
وقد سئمتك يا أمدرمان فاستمعي ** إما استقيمي وإما اليوم نفترق

فإن أم درمان التي انشطرت وظيفتها من مدينة تصنع الاستقلال إلى مدينة تستتهص رجالها بما وصلت إليه من الترددي فدعوة الشاعر هنا ليس من قبيل الهجاء إنما من قبيل الصراحة والوضوح وأن يقف الناس علي أحوال مدينتهم الوطنية الوقفة الصادقة وقد كان محمد الواثق في إمدرمانياته مكشوفاً وواضحاً أراد من وراء ذلك أن تدرك أمدرمان في رجالها ونسائها وتميبتها والذين فهموا دعوته مروقاً عن الوطنية قاموا بالرد عليه .

درمان يا بقعة الأحباب مرحة
يا جنة الحسن قد عمت مسرتها
عشقت حسنك لا أبغي به بدلاً
حيث المصانع لا شي يكيفها
فالتأسري بصنيع الخير أمثالي
فالتنقلي الصب من حال إلى حال
مالي ولندن ذات اللهو والمال
وبنت لندن قد تسبي بمثقال
من كل ناعمة الكفين والبال (٢)

(١) محمد الواثق ، أمدرمان تحتضر ، ص ٢٠

(٢) السمانى الشيخ عبد المحمود ، أمدرمان الحياة ، ص ١٥

هي أم درمان التي يعرفها كل شاعر ليس هنالك جديد وإن كان قد قدم محمد
الواثق أم درمان علي النحو الذي رأيناه فهو قدمها مختلفة ومنفلته تدهشك تفاصيلها
ولكنها الحقيقة التي راها الشاعر وهكذا جاء صوتها :

درمان قد أخذت كلي برقتها * * فراقني حسنها ذات البساتين
يا جنة الحسن لطفاً وارحمني دنفاً * * عيناه قد سهرت من حورك العين
نار الصبابة للعشاق مرحمة * * كوني سلاماً فبرد الخل يشفيني^(١)
فهي الجنة ، والحسنة ، والعاشق الدنف الذي ينفق ساعاته الطوال انتظاراً وأملاً .
رجالك البيض من الله قد غضبوا * * رأس الرعية لا يلحق بهم ذنب
دارت كؤوسهم يخلو بها الطرب * * من قبل أن يعرف الزيتون والعنب
هم خيرة الناس أخلاقاً هم النجب * * طابت بطيبهم الأشعار والخطب
قد شاقني فيهم أهل التقى أدب * * ما كان يجمعهم مال ولا نسب
هم الأحبة إن بانوا وإن قربوا * * هم الكواكب خلي أينما ذهبوا^(٢)

أم درمان تعطي من الأوصاف ما تستحق فهي كانت بطول التاريخ محل دين
وحفاوة بأهل الدين تشهد قباب صالحها وحوليات مريديها بذلك .
وليس التجاني يوسف بشير وحده من أسقط وطنيته علي جزيرة توتي . فقد
جاء بعده شعراء نوعوا في وصف توتي كما عكسوا عن الثراء الذي تكتنزه جزيرة
توتي :

الله وجهك بدر تم شع في الأرجاء نور
إني رايتك والسكوت يلفني والناس كلهم نيام
لا شي أسمع ... نام كل الخلق وانقطع الزحام
كالأمس لم تتغيري
نفس الطفولة والبراءة حين يعجزك الكلام
نفس ابتسامتك التي يطل منها الصبح
وينحسر الظلام^(٣)
أرض بكر لذلك نحن نحبك نحب البراءة والسكون

(١) السمانى الشيخ عبد المحمود ، أم درمان الحياة ، ص ٢٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣

(٣) فضيلي جماع ، مجلة الإذاعة والتلفزيون ، العدد ١٤ ، ١٩٨٦ ، ص ١٣

هذا هواك ونحن لم نعدك بك يا غادتي
فعلام طيفك جاء ينبش ذلك الماضي ويحرمني المنام
ثم انثيت وبين مولد لحظة

كانت يداك تلوحان
أواه لو أعطيت أجنحه لكن عبرت أماداً
يا كر دفان أنا هنا

حيران احتقن الهموم ... أجول محتاراً العنيد
يا كر دفان أنا هنا

حيران أحتقن الهموم ... أجول محتاراً وحيد
وأنا هنا في غابة الإسفلت ... في الخرطوم
كالناي الحزين

أشدو بحسبك أكتب الأشعار فيك
أواه لو أعطيت أجنحة

لكنت عبرت آفاقاً وآفاقاً اليك
واتخذت تحت السنط والهجليج
متكئي الجميل

وقبعت أ بسم للرعاة ... حداؤهم

ينداح ضوء الفجر في كل الحقول

ورقصت جزلان المشاعر عند دندنة الطبول

ثم يمضي معدداً هذه الصور الجميلة التي تعدها المدينة

وهناك ليس يطول ليل

ما أروع المنير هناك والسمر الطويل

وقصائد الدوبييت تحملها النسائم في البطاح

وشليلي راح (١)

هكذا كرد فإن لوحات إثر لوحات ، تضاريس في تضاريس والمشاعر جزلي

بالأرض والأهل .

(١) فضيلي جماع ، مجلة الإذاعة والتلفزيون ، العدد ١٤ ، ١٩٨٦م ، ص ١٣

الفصل الثالث

مشاركة الشعر السوداني في القضايا الوطنية الخارجية

الوطنية مفهوم كبير أشبه بالإنسانية يتسع ليضمن اشتراك الجميع. ويمكن أن يكون للناس وطن واحد . إذ إن الجزر قابل للاشتراك . لذلك سنرى كيف يشارك الشعر الوطني بعد الاستقلال آخرين هموم وطنهم وآمال شعبهم تحقيقاً لمبدأ وحدة الشعوب والأمم . ولم يكن الشعر السوداني بمعزل عما يجري في العالم الخارجي فقد عبر عن مشاكل العالم بمواقف ناصعة فلا يكاد يمر حدث يتداعى له العالم بأسره إلا وكان الشعر السوداني مبادراً بالمواساة والمشاركة والمباركة . وهذا هو الإمتياز الذي يخص الشعر السوداني . كما عبر هذا الصنيع عن قدرة الشخصية السودانية على سرعة وعمق الاندماج في العالم. ما يعني أنه ضارب في التحضر . إذ إن الإحساس بالعالم هو من صميم الحضارة والمدنية .

انخرط الشعر الوطني في التعبير عن القضية الفلسطينية التي انفطر لها قلب العالم ولا يزال ينفطر . فقد ذهب الشعر مقاتلاً ومبشراً :

يافا نعود إليك من خلف البحار

يافا وقد طلع النهار

هذا صياح الديك ... قد طلع النهار

وغسلت أحزاني بانداء الصباح

ونضوت قمصان الجراح

وملأت كل حقائبي بالزهر من كل الورود

عدنا وما زالت بقيتنا تعود

هذا صياح الديك من خلف الحدود^(١)

سيأتي صباح يافا من خارج حدودها ، من السودان ، يعود السودانيون وعلى

السنتهم أغنيات الانتصار والألحان والغناء .

شلال ألحان ونهر من حنين^(٢).

(١) سيد أحمد الحارذولة - أغنية إلى يافا ، بيروت ، دار العودة ، ص ١٢.

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥

والناظر إلى العالم العربي يجد أن الصراع مع إسرائيل أملى ديوان الشعر العربي بكثير من الأشعار . ورأينا في هذه الدراسة المتواضعة أن نقف على نماذج مشاركة الشعر السوداني الوطني ما بعد الاستقلال في هذا الصعيد :

حملتني الريح إلى سينا
وعبرت البحر مع القوات
عبرت البحر
أمي بالمدفع تهزم جمع يهود
وأخي في عمر الورد
بكل العمر وجود
وأبي وأنا ونهر النيل
أغرقنا الطغمة في الساحات
وركزنا الراية فوق الشمس
ما عاد لغير العرب هنا رايات
يا صوت الحق يموج هديراً من سينا إلى الجولان
المارد حطم إسرائيل^(١)

الحرب التي اشتعل أوراها في ١٩٧٣ بين مصر وإسرائيل وقف الشاعر السوداني حتى سقطت الراية الإسرائيلية وشمخت رايات العرب :

دمشق موئلي وهي شبابي *** وأحلامي التي تزكي شعوري
أنتيك من ربي السوداني صبا *** فهل وصل إلى صب أسير
وأهلي يا دمشق على عهد *** مع الأعراب في شتى الأمور
على الإسلام كي يبقى عزيزاً *** بكل معارج الأفق المنير^(٢)

(١) سيف الدين الدسوقي - حرف من دمي - ص ١٠٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢

دمشق لم تسلم من أذى اليهود . فتلك الحرب التي عاشت فيها اسرائيل
افساداً واحتلالاً للأرض العربية . ولا يزال الجولان أسيراً لإسرائيل .

بيروت كما أحبها العرب والسودانيون ، دافعوا عنها في جميع أزمتها
وصراعاتها مع اسرائيل وما أكثرها تكراراً . كما أن الحرب الأهلية التي استمرت
خمسة عشر عاماً كان وراءها الاسرائيليون نرى أن السوداني يرسم لوحته المعبرة عن
بيروت وقد استحالت إلى أرض طاردة :

صباح الخير

لوح غصن ليمون لأهل الدار ... ما ردوا

هنا بيروت

لا أحد كما يبدو

لأول مرة هذى يشق الدار قمري ولا يشدو

هنا بيروت

زهر العلم ... بنت الشعر

ذات الدل والميس

لأول مرة هذى

يمر الطفل من اسوار مدرسة

ولا يهتم للجرس

هنا في أول القلس

حبيبي يوقد الطلقات في صدري وينطفئ⁽¹⁾

كما يعتب على العربي الذي نام عن أعبائه ليستيقظ في حربه مع نفسه

وحزبه وهمومه ومصالحه :

لا والله يا عرب

(1) عبد الله عبد القادر الكتيابي - الأعمال الكاملة ، ص ١٢٠

أنا منكم وضد قصائد التوبيخ لكني
أشك ... أشك في التاريخ لا أدري
لعل رواته كذبوا^(١)

وقد مثلت لبنان فاجعة للشاعر السوداني بحروبها مع إسرائيل وحروبها
الأهلية . قد تسربت بالدماء من ذانيك الحرين . فالتفت الشعر فلم يجد للبنان عدنان
أو قحطان مات كبيرها وصغيرها ، الرجل والمرأة :

زف ليل الأسى لك الأحزانا *** ناسجاً من خيوطها لك الأكفانا
وتسربت بالدماء جروحاً *** نائحات تعاتب الرحمانا
هنت يوماً فلم تزل بيد الهون *** وبدلت بالهوان الهوانا^(٢)

ثم اتسع الوجدان الوطني السوداني ليشارك قارة بحالها آمالها وأحلامها
وجراحاتها وجهلها :

أفريقيا التي
ما بيدي أن أرفعك
ولا بها أن أضعك
أنت اليم - وأنا - اليم معك
وجائع - ومهجتي جوعها من جوعك
وأنت عار وأنا هانذا عار معك
يا شعبي التائه ما أصيعني وأضيعك^(٣)

(١) عبد الله عبد القادر ، ص ١٢٠

(٢) عزيز التوم منصور : من محراب حبي ، ص

(٣) الفيتوري ، أغاني أفريقيا ، ص ١٢١

ثم يرتفع الصوت المحتج ، الصوت الآمل في الغد :

أرضي والأبيض دنسها

دنسها المحتل العادي

فلأمض شهيداً

وليمضوا مثلي شهداءً أولادي

فوراء الموت ... وراء الأرض

تدوي صرخة أجدادي^(١)

كما شارك الشعر السوداني الوطني بعد الإستقلال مصر في حروبها التأمينية

: ١٩٦٥م

يا وطني هاهو الناصر عاد

المجد والجلال في ركابه يسير

والفرح الكبير

والحب والضياء والزهور

يا أيها الثوار

يا أيها الأحرار

يا من وقفتم وحدة في وجه الإستعمار

يا من تحديتم قوى الظلام والدمار

يا من غسلتم عن جبين الشرق عاره القديم^(٢)

ووقف الشعر السوداني مع الثوار الجزائريين في قتالهم المرير ضد القوات

الفرنسية في معارك الإستقلال :

يا بن بيلا

ما أجمل أن يصحو إنسان

(١) محمد مفتاح الفيتوري ، الأعمال الكاملة ، ص ١٢٧

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣١

وإذا التاريخ بلا قضبان

وإذا الثورة في كل مكان

تركز أعلام الحرية^(١)

في أرضي في أفريقية

كما حف الطالب المصري في جامعاته . وعبره بث برسالته إلى شباب العالم العربي استنهاضاً للهمم ، وتتأ بدوره المتعاطف في مواجهة التحديات الجسام والقدرة على استبصار المستقبل . إذ إن الطلاب هم زخيرة المستقبل :

هذا الشباب يفخر الوادي به *** حرٌّ له في أمسه حل وعقد
عشق الفضيلة طفلة وسما بها *** ولها يعد عديده ولها يجد
بنو مصر وفيكم معنى المنى *** تسمو مزياه ومعنى النيل يبدو
أبناء وادي النيل جئت *** محييا ابدي شعوري في نشيجي وهو قصد^(٢)

كما اهتز العالم بأسره لمقتل البطل الأفريقي لوممبا ، وانفطر قلب الشاعر الوطني السوداني بكاءً وعزاءً واحتجاجاً . ذلك لأن لوممبا لم يكن يمثل حينها الكنفو فحسب بل كان رمزاً لكل البلاد المستضعفة . ولليقين الذي يستتبطه الشعر السوداني أن البطل والوقوف من خلفه ووقوف خلف قضية الشعب :

يا لوممبا .

رغم أنني دافق الإحساس فوار المعاني

وفؤادي فيه من صافي المحبة

لك للإنسان في كل مكان

وحديثي أغنيات من كفاح الشعب في ثغر الزمان

ودمائي ثورة الأحرار تجتاح المعازل

(١) محمد مفتاح الفيثوري ، الأعمال الكاملة ، ص ١٦٠

(٢) د. كامل الباقر - وحي القلم الفضي ، ص ٦١

تحرق الأوغاد تزرورهم رماداً

توقد الغابات في الليل مشاعل^(١)

هكذا دفع الشعر السوداني الوطني بعد الإستقلال بنفسه في آتون كل المعارك
. آملاً من استقلاله استقلال الآخرين (لا يعرف الشوق إلا من يكابده) .

ما كان يميز عربيها من أفريقيها ، شمالها من جنوبها - افريقيها من آسيويها

ما كانت مدن الحرب هي وحدها التي تحمل الشاعر السوداني على المشاركة
والمؤازرة والمواساة ، فقد امتدت مشاركته إلى مدن وأمكنة آمنة . فجاءت مشاركته
مدحاً واحتفاءً وعرافناً . ففي بغداد :

تيفنت أنك ما زلت حاضرة الشرق

ما زلت سيدة العصر

ما زلت أنت الوطن^(٢)

وبغداد تأتي من تاريخ طويل . تاريخ صنع فيه العرب مجدهم وعلمهم . ونهر
دجلة كان شاهداً أن ماءه استحال إلى حبر أسود حينما أغرق التتار كل ما خطته
أقلام علماء أفاض . وكان هذا العلم حفيماً بأن يجعلنا في مقدمة العالم . فبغداد ليست
مدينة قامت على عجل ومن فراغ . لذلك كان صعباً على الشعر أن يتجاوزها ،
وهكذا كان الشعر الوطني تخليداً لمدن عظام كن في معركة التاريخ محوراً :

إنهم يعرفون حقيقة أن الطريق

إلى البحر والنيل

يبدأ منك ولا ينتهي أبداً

(١) الفينوري - أغاني أفريقيا ، ص ١٤٨

(٢) سيد أحمد الحارذلو ، أغنية الي يافا ، ص ٣٢

وأُنك باب العروبة
جسر التواصل
نهج التماثل
بدء الطريق لكل المدن
وأُنك باب بيوت الذين ينامون ملء الجفون
وهم يحلمون بدفء الوطن
وهم يعرفون
بأن الذي يستبيك . . . استباننا
وأن الذي يحتويك . . . احتوانا
وأن الذي يقهر الحب فيك
سيقهره في قلوب الجميع
لأن الطريق إلى الحب
يبدأ منك ولا ينتهي أبداً^(١)
يقف الشاعر السوداني ضد من يستبيك ويقف معاضداً لمن يحتويك
حين يكون زمان الملمات
حين يجيئ زمان المروءات
حين يحاصرنا الموت
كنا إذا صاح واحدنا . . . نتداعى
خفافا . . . سراعا
فإذ نحن ريح من الصافنات^(٢)

(١) الحارثي : أغنية إلى يافا ، ص ٢٢

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١

الفصل الرابع

الثورات الشعبية

تصبح الثورات الشعبية والانتفاضات تياراً رافداً تغذي الوريد الوطني بكثير من دماء الوطنية . فإن الانتفاضات هي أصدق تعبير عن حرية الإرادة التي يستمتع بها ضمير الشعب .

يحدث كثيراً في السودان أن يأخذ الشعب المبادرة بيده . هكذا خلفه الله شجاعاً ، صبوراً ، فاضلاً مضحياً ، لا يقبل الضيم . لذلك قام منذ الاستقلال ١٩٥٦م وحتى نهاية القرن ٢٠٠٠م بثلاث انتفاضات .

وقد ظل الشعر مرافقاً للشعب في كل اختباراته . ونادراً ما وقف مع حاكم ظالم ونادراً ما نافقه حتى إن فعل ذلك فهو لن يستمر . ذلك أن الضمير السوداني يقظ .

الثورة هي إحدى الحلول التي يستطيع الشعب طرحها لعلاج أزمة ما . ودائماً ما تتعلق بالحكم والحكام . فترى الشعب السوداني التقط قفاز الثورة ١٩٦٤م . حينما تحتم قيام ثورة ضد الحكم حينها . فقد طفرت مشكلة الجنوب للسطح وأخذ الجدل حولها أبعاداً كبيرة . ثم إن أشواق الشعب السوداني دائماً للحرية هي ما تخلق لديه مبرراً كافياً للقيام بالثورات ضد الأنظمة الدكتاتورية الفاسدة .

كيف استطاع الشعر أن يتجاوب مع جمهوره ، ما هي الأفكار والأدوات الجديدة التي طرحها شعر التعبير عن الثورة والانتفاضة . من كان يبشر ؟ ومن كان يصف ومن كان يتعاطف ؟ لنر .

جاءت قصائد اكتوبر بكل ما تملكه قصيدة الثورة ، التحدي ، التفاؤل ، الإحتجاج جاءت لتعلن أن الظلام الذي كان يخيم على أهل السودان قد انقشع . وأن الأحلام هي الآن سيدة الموقف . وأن الغد هو ما نحلم بأن نجعله وفق ما نهوى :

في متاهات الليالي عبر أحلام العصور
نحن واكبنا المعالي واصطحبنا كل نور
في جبين الشمس سرنا حيثما دارت ندور
كان وجه الأرض قائم والسماء الرحب غائم

وانتصرنا رغم هذا رغم ويلات المظالم

كان ضعف الناس قوة ... قوة الشعب المسالم^(١)

ولقد طالما استبشر الناس بعد اكتوبر بعهد الحرية . فقد ذهب نظام الفريق

عبود في إزلال الناس حداً بعيداً . لذلك عقد الناس أملاً كبيراً على ثورة اكتوبر .

وانبرى فجر وطل يحمل أكتوبر المجيد

فجر اكتوبر أهلاً يزحم الأفق البعيد

وبدأ الكون مضيئاً وغدا الشعب سعيد

ورأي الحقل طيوراً مثلما غنت تعيد^(٢)

بدأ الشعر يشعر بالزهو والفخار :

نحن يا تاريخ ماض نحن يا تاريخ حاضر

حدث العالم إنا لم نعد نخشى المخاطر

أمننا الأرض غناءً وابونا النيل شاعر

وجميع الناس جند وجميع الشعب ثائر^(٣)

والرمز الذي جسد فيه الثوريون نضالهم وقضايهم هو القرشي الشاب الذي

اغتيل في جامعة الخرطوم :

ووجهك يا قرشي ...

يا عربي ..

يا زنجي ...

يا نوبي

ومضة بارقة من شعبنا الخلاق

وفيضاً من فؤاد النيل

(١) سيف الدين الدسوقي : الأعمال الكاملة ، ص ١١٠

(٢) المرجع نفسه : ص ٩٨

(٣) الدكتور : تاج الحسن ، ص ٤٦

غطى الدار

حريقاً أشعل النيران في الأعشاب^(١)

ولعل ثورة أكتوبر من الثورات الواعية . فقد جاءت من قضية الجنوب لذلك

كان الخطاب فيها زنجياً عربياً نوبياً مختزلاً كل الاثنيات :

ولكن الدماء تسيل

وتصبغ ارجوانا وجه هذا النيل

دماء الزنج والعربان

ووجه النوبة الإنسان^(١)

فقد مثل مقتل القرشي منعطفاً كبيراً في ثورة أكتوبر :

واهتاجت النفوس كمرجل يغلي

صوتك الدافئ ما زال ينادي

يا بلادي

وعلى الشارع آلاف الأيادي

لم تزل رايتنا فوق البوادي

مثل نسر

جامح النظرة خفاق الجناح

نحن بعدك سرنا للصباح

فوق آلاف الجراح^(٢)

ومن فرط هذا الإجلال ، ولأنهم يعولون :

قد حملناك على الأعناق فرقد

وكتبنا في قلوب الناس اسمك

(١) تاج السر الحسن : قصائد من السودان ، ص ٣١ .

(١) المرجع نفسه ، ص ١٧

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٠

أنت ما زلت على الشارع تمضي
مثل طوفان على الشارع يمضي
يا عريس المجد ... يا أفراح أرضي^(١)
وقد حرص الشعر على تمجيد هذه الثورة في كل تفاصيلها ، وفي كل أبعادها

:

يوم نحدّق فيه من فيض انبهار
كيف انتفضت وكنت يوم النار ... كيف
الليل يبطن في المسير وقرب مستشفى العيون
دوت صفاير قصار
وتوقفت ست من العربات يزحمها جنود
قفزوا كأعمدة ذو الخوذ الثقال
الحق كانوا خائفين
لكنهم ظهروا كمكبسة ثقيلة
تلقي وتلقي رعبها في الواقفين^(٢)

أرأيت كيف تقصى الشاعر أحوال ثورته ودقيق تفاصيلها ؟
إنه إن دل إنما يدل على الحرص لتسجيل وتوثيق حدث يمثل أمة بأكملها ، وتصوير
يوم كان حاسماً في تاريخها فهو يصف الجنود - ابناءنا ابناء جلدتنا . فهم يستحقون
الإكرام رغم أنهم مثلوا حينها يد النظام . وهنا قيمة جديدة أضفاها الشاعر على
وطنية السودانيين الذين أحبوا حتى في أعدائهم ابناء الوطن سودانيتهم:

بسطاء من ابناء موطننا الكرام الطيبين
كانوا يصلون الصلاة النافلة
ويرتلون مع الصباح

(١) تاج السر الحسن ، قصائد من السودان ، ص ٣٦ .

(٢) عبد الرحيم أبو ذكري ، الرحيل في الليل ، الخرطوم ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، ط ١ ، ص ٣

الراتب المهدي والقرآن

والسير الشريفة والمديح^(١)

مثل أكتوبر وأناشيده وشعره فخراً سودانياً عبر امتداد النهضة العربية التي انبعثت في كافة أنحاء الوطن العربي في أوائل الستينيات لذلك كانت فتنة الشعراء بشعوبهم والتيارات التي احتملوها كبيرة . ذلك أن الثورة الشعبية والمد الذي نشرته لا بد أن العالم العربي بأسره قد وقع تحت تأثيرها . فهي فترة الرهان على الشعوب لذلك كان لا بد أن يمدح الشعراء في شعوبهم على نحو ما نراه عند محمد المكي إبراهيم :

من غيرنا يعطي لهذا الشعب معنى أن يعيش وينتصر

من غيرنا لصياغة الدنيا وتركيب الحياة القادمة

جيل العطاء المستجيش ضراوة ومصادمة

المستميت على المبادئ مؤمنا

المشرئب إلى النجوم لينتقي صدر السماء لشعبنا

جيلي أنا . .

هدم المحالات العتيقة وانتضى سيف الوثوق مطاعنا

ومشى لباحات الخلود عيونه مفتوحة

وصدوره مكشوفة

بجراحها متزينة^(٢)

فهذا هو الشعب وهذه أجندة أحلامه . أما أعداؤه فهم :

بالأربعاء طبولنا دقت وزوبعت السماء

صيحائنا شقت جدار الليل واقتحمت فناءه

وتحدرت ناراً بأداة الطغاة العاكفين على الدناءة

(١) عبد الرحيم ابو زكري ، ص ٣٣ .

(٢) محمد المكي إبراهيم - الأعمال الكاملة ، ص ٩٢

الخائنين ، السارقين ، الفاسقين

الحاسبين الشعب أغناما وشاةً

بالأربعاء هتافنا شرح السماء

حفت بموكبنا بطولات الجدود تزيد عزمنا مضاء

وتقاطر الشهداء من أغوار تاريخ البلاد مهللين مباركين نضالنا^(١)

فالأبطال موجودون بنضالهم ، بطبولهم ، بصياحهم والخائنون موجودون

والعاكفين على الدناءة . يحاكمون المفسدين وفي غمرة فرحهم يغنون للأربعاء :

الأربعاء على جبين الدهر لؤلؤة ومنتكاً إنتصار

زغرودة تحمي ظهور الثائرين وكأس أفراح تدار^(٢)

ويستمر الوصف :

يا حبنا

يا حبنا المجدول من نور العيون

وطيف ليالات المنى

يا وعدنا

كنا نودك أن تجئ

وفي الربا تمتد أفراح الصباح

كنا نودك أن تجئ وليس ملء العين آلاف الجراح

يا حبنا

يا مجدنا المحضور من ضوء النجوم هناك من ألق النهار

يا أحرفاً تزهو صموداً رائعاً ... تهمة فخار

كنا نودك أن تجئ وليس في الأحداق قدمات النهار^(٣)

(١) محمد المكي إبراهيم ، الأعمال الكاملة ، ص ١٢١

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢١

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٢

جاء الشعر الأكتوبري غناء عذباً ولعل دهشة الناس بأكتوبر جعلتهم لا يلتفتون إلى التحديات التي تواجه الشعب باعتبار أن الشعر والشعراء القدرة على التوجيه والإنجاز والاستبصار والاستكشاف . فللشعر عيناه اليمامة .

أكتوبر الشهر البطل *** قد جاء يزخر بالأمل
حب الرئاسة من قديم *** كان يقتلع الدول
أعطوا الحقوق لأهلها *** ما خاب يوماً من عدل^(١)

لذلك لم يستكن الشعب حينما انهارت أكتوبر فطفق إلى استعادتها في أبريل ١٩٨٥م وقد كان الجيش شاهداً بل حاضراً ومشاركاً . تلك الثورة التي انحاز فيها الجيش للشعب انحيازاً نبيلاً :

لم نجد إلّاك في حقن الدماء *** عبقرياً يا سوار الذهب
أشعل الرجل شموساً كاللظى *** والصحاري في المدى ملتهب
إن تأخرت فينا ضيعتنا *** من لنا إن أنت لم تقترب
زاهداً في الحكم لا ترغبه *** ماجداً شهماً كثير الأدب^(٢)

هذا هو الفريق سوار الذهب القائد العام للجيش السوداني حينها . وفي موقف نبيل انحاز للشعب واعداً عن تخليه الحكم في زمن محدد لم يخلف وعده . جاءت انتفاضة أبريل بعد ستة عشر عاماً من الحكم العسكري لجعفر نميري . جاءت يقودها الشعب :

هذا بيان أول

(١) أحمد محمد صالح - ديوان الأحرار ط٢-ص٦٩

(٢) سيف الدين الدسوقي _ الأعمال الكاملة ، ص ١٤٦

من نمل هذا الشعر
من طابوره الليلي في عصبي
بيان
هذا مساء تحرم الطرقات إلا . . .
شارع التاريخ إلا معبرا
خشعت لديه الضفتان
وتحرم الأعراس غير زفاف مطعونين
صوب النهر . . . قرب القصر . . . لا يتعارفان
وتحرم الجوقات غير غناء سيده
يقاوم عطرها إبر النشادر والهراوات الثخان (١)
أرأيت كيف شارك الجميع في صناعتها . أرأيت كيف :
فبأى آلاء الجسارة يكفرون
أ ويكفرون وأنت يا وطني
تحل معاهد الدنيا
وتخترع الصباح الطلق من ليل الدخان
أ ويكفرون وأنت من زيتونه
فوق الجهات الكل
تخرج من جذور القلب تنبت بالأمان (٢)
نستطيع أن نقول أخيراً إن ما كتب من شعر وطني في الثورتين لم يتجاوز
الوصف السطحي إلى الأعمق حيث الموضوعات التي حاول الشعر أن يتناولها من
مشاكل وتحديات قامت من أجلها الثورة . المستوى الرأسي من حيث تكثيف الرؤية
التي ينطلق منها الشاعر . لذلك لم يكن شعر الانتفاضتين قوياً نعم توافرت فيه
غنائية كبيرة . فهو كأنما أنجز علي عجل .

(١) الكتيابي _ الأعمال الكاملة ، ص ٣٤

(٢) الكتيابي _ الأعمال الكاملة ، ص ٣٦

الباب الثالث

الخصائص الفنية للشعر الوطني

الفصل الأول

الأسلوب

استهلالاً إن الأسلوب يتدرج من مستوي القصيدة إلى بناء إلى موسيقي إلى شكل مفرداتها جملها ، وتراكيبها ، و موسيقاها ، و لغاتها . إذن فإن الأسلوب هو طريقة التعبير الخاصة بأديب من الأدباء ويندرج فيه الكلمات ، الجمل ، التراكيب . وعند الغربيين فقد ذهب لا مار إلى أن (الأسلوب أصعب ما يواجه الإنسان تحديداً) ولعل أول من أصل للأسلوب وأسس فكراً اسلوبياً علي المستوي العربي في مواجهة تيار المعاني هو الجاحظ وعند الدكتور عبد الله الطيب (أن الشعر فن من فنون الكلام لحمته اللفظ والموسيقا والإيقاع وسدته الصورة والصدق)^(١) ونحن لا ندعي أن الاستقلال مثل فارقا في الحياة الأدبية إجمالاً والشعرية علي وجه الدقة حتى لا ننقاد إلى استنتاجات يكون مركزها فرضية خاطئة . وكل هذا البحث يقو علي هذا الزعم . أن التيارات الفكرية والمعرفية عموماً لا تلبث أن تنتشر في العالم بأسره سيما إذا كانت أفكاراً تتعلق بمشترك كالشعر عند كل الشعوب ولا بد أن السودان كان علي صلات كبيرة بالعالم يؤثر ويتأثر إذا إنه كان باستمرار منطقة وسطي في الجغرافيا والتاريخ عليه فإن الأسلوب عند أدبائه وشعرائه كان حفيماً بكل التطورات التي عبرها أسلوب الشعر .

تنوعت قصيدة ما بعد الاستقلال في كل التيارات وكانت تستهويها تنويعات المدارس الشعرية من التقليدية إلى الحديثة وبرز كثير من الشعر في التزامه كما وسم الانخراط في مدارس شعرية بعينها كثيراً من الشعراء للغة آفاقها ومدارها وسحرها ، وعبقريتها للغة أن تشئ ، وأن تومئ ، وأن ترمز أن تلمز ، وأن تهمي ، وأن تصيح ، وأن تسيل ، وأن تجرف ، وأن تهدر ، وان تحاور ، وأن تجادل ، وأن تتناقش ، فاللغة هي الحياة وما تنتجه من إحياءات ضمن سياقها . فقد خرج الاستقلال وهو

(١) الدكتور عبد الله الطيب ، المرشد لفهم أشعار العرب ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، ص ٧١

دائماً يخرج من بين قتال وسلاح خالصاً لذا قلما يرجي أن يلتقط بأيدي ناعمة وحرص
دافئ كالكثيفة تأتي اللغة فخمة ، وجزلة لها أصواتها وإيقاعها النحاسي فالحدث
يخرج من آتون الحرب أو من جمر النضال أو ... ويظل الشاعر يركض علي
الجمر والحصي ليختار لغته وصوره من جمر الغضي :

نلتقيك اليوم يا وطني لقاء الأوفياء .

في جوف العتامير تداعينا ..

لك يا أرض البطولات

وميراث الحضارات ...

نغني اليوم في عرس الفداء

همنا يبتسم النهر القديم

لبعانخي ولتهراقا وللمهدي

ود حبوب والقرشي

وللموت الفدائي العظيم ^(١)

إن كنا زاعمين بأن اللغة حياة موازية ، متطابقة ، حياة تتماري في اليومي ،
في المعيش وفي الواقع وإن قلنا بأن اللغة ليست وسيلة إنما موضوع وأن اللغة ليست
أداة وإنما مؤدي ، وأن اللغة ليست وعاء وإنما وعي ، وأن اللغة ليست وسيط إنما
الطرف الأهم في المعادلة الابتداعية ، وأن اللغة ليست جزاف إنما حقيقة ، فإننا
نتوقف في اللغة التالية :

تتادينا لم تكن ثورة أكتوبر ثوره فرد أو ثورة قضية جزئية إنما ثورة شعبية
التفت حولها قضايا كثيرة كحرب الجنوب والبحث عن الديمقراطية وارتفاع الأسعار

(١) مبارك بشير ، زمن التراعي ، ص ٢٧

لذلك صدر الفعل الجماعي الذي عبر ضمنا عن النجدة ، عن الصراخ والصياح وبرهن عن طلب متسارع وعن تضافر جماعي لذلك كان فعلاً موفقاً ، تواشج مع الحالة والمعني (الحياة) (خفافاً كخيول الريح) للتأكيد علي السرعة التي يتطلبها المشهد والحالة وعلي الازمة التي يتنادون لها جاءت (خفافاً) ليست مهمة فحسب بل ضرورية جدا لتخلق تكاملاً مع التنادي ولتكون أكثر دقة إن الفعل (تنادينا) والواقع ساعتئذ هما مطلوبان بشدة .

ثم تأتي الصورة الموفقة التي يخلقها الشاعر (خيول الريح) لتنسجم تماماً مع الفعل وتأتي الصورة البيانية لتؤكد السرعة في النداء والسرعة في (خفافاً) فليس هنالك نبوء في الكلمات أو الصورة فقد كان المشهد السياسي والوطني يتطلب تناد علي وجه السرعة واي سرعة فانها سرعة الريح فبلا معان استطاعت اللغة أن تخلق الحالة الشعورية وهذا يدعم موقفنا الزاعم بأن اللغة وعي لا وعاء .

ثم تذهب اللغة مذاهبها البعيدات ، وتقوم دليلاً ، وتنهض شاهداً علي قدرتها علي اختزال المعني حتى قبل أن تتركب ، قبل أن تتضاف . فانها قائمة في محراب رسالتها في التوصيل والإيحاء . (تداعينا) يأتي فعلاً مطلوباً في حد ذاته دون أن نسمي شركاء له متحدياً جملاً بحالها أن تفي بالغرض كما وفي هو فإن في ذلك اليوم التداعي مطلوب أن يقف الفرد حزو الفرد ليعدي الفعل البطولي كما يعدي الزكام .

فإن العجلة التي مثلها (تداعينا) مطلوبة في حد ذاتها لأن الأمر لا يحتمل انتظاراً أو بطئاً فيأتي التداعي تحت تأثير الخدر فإن التداعي لا يصدر بوعي إنه فعل بلا دليل كما يفعل الآخرون تفعل دون أن تسأل عن السبب أو النتيجة .

وهل تلك الحالة والشعب مرجل يغلي يسأل المرء فيما الناس تتدافع ؟ إنما يخوض أولاً ثم يسأل أخيراً قد نجد في حديث الرسول صلي الله عليه وسلم (.. كما تتداعي الأكلة علي قصعتها) برهانان علي أن التداعي لا يكون من منطقة واعية إنما من منطقة خلف الوعي :

لك يا أرض البطولات

وميراث الحضارات

ولأن ما يلزم الفداء غالباً ولأن ما يستحق التضحية عظيم ، فللبطولة أرض وللحضارات إرث وللصورة أن تحافظ علي معناها فيما إذا تبادل المضافان مواقعهما فتصبح للبطولة إرث وللحضارة أرض .

(نغني اليوم في عرس الفداء) للفداء عرس وهنا الصورة البيانية تذهب وتخلق من الأضداد معني نبيلاً (عرس الفداء) هكذا تتجمع هنا وتتركب صورة من متناقضين في إطار لا نشعر معه بالتناقض بل نتلقي رسالة هذه الصورة بكثير من الفرح ثم انظر للغة والصور كيف يتحد بعضها في بعض لتقدم خليطاً من السياسي والفني .

فإن الوطني ما كان يقبل من حاكمه أو حزبه مشاهد أمل أنها ذهبت مع المستعمر ولأن الألم كبير جاءت اللغة كاشفة ، ومعرية ، وضابطة ، وحاكمة :

- لا يعرف العدل إلا الفكر في يده ** سيف يصول علي الطغيان طغياناً
وفي المساجد كم أبصرت من وثن ** يفرق الدين دين الله أديانا
يصير الزهد أطماعاً ومن عجب ** أن يصبح الزهد بالاطماع سكرنا
أغوي بني العلم بأسو رجله وسعوا ** يقربون له السودان قرباناً
أن المقابر في السودان مثمرة ** نخلاً ونخلاً وأقطاناً وأقطانا
أن قلت قلت اسكت قالوا ضاع منطقته ** وزياح بالعيش لا يغنيه أوطانا
وإن نطقت فلي رب يحاسبني ** رب من الناس أعياء الله كفرنا
بالأمس قال أنا الساعي لألبسكم ** وعاد يلبسنا الأقياد ألوانا
كم غير الحكم قديساً وصيره ** من سكرة الحكم بعد الصحو سكرنا
فإن يكن عمل الأحزاب بهتاناً ** فلم يكن دمنا المسفوك بهتاناً
لو كنت من مازن لم تستبح إبلي ** بنو اللقيطة ذهل بن شيبانا
إني لأعلم أن الصدق مهلكة ** فلنلق يا نفس هول الصدق شجعانا
أورق بعودك ساقينا وغن لنا ** (بان الخليط ولو طوعت ما بانا)^(١)

(١) محمد المهدي المجنوب ، الشرافة والهجرة ، ص ٢١٤

ها هي اللغة تخرج من مكانها المناسب قوية صارمة كأنها الطلقات ومباشرة

:

لبثت قليلاً فعند الليل خابية * * * وسوف نشرب حتى الموت أضغاناً (١)

إن اللغة والمشهد متساويان في الميزان لا تزيد كفة عن المشهد ولا المشهد عن الكفة وإن المشهد السياسي أوقع صاحبنا في المأزق لذلك فإن حضور كلمات هنا كالسيف والسكر والكفار والمقابر والصلبان والأقياد وشيطاناً وبهتاناً ودمنا المسفوك وهول ويصول ويفرق وباسوا وضاع وباع وأعيا وهان ؛ تخترق الطاقة الموازية .

فقد تطلب صراح الفساد صراح اللغة . وقد تطلب انتشار الفساد أن تكون كذلك اللغة منتشرة وتارة تأتي اللغة مباغطة ليس بمعني التقابل البلاغي إنما من موقع (دواني بالتي كانت هي الداء) انظر الزهد يصير طمعاً المقابر (الموت) تثمر الحياة رب الناس (الإيمان) أعيا ربه كفرًا كما أن اللغة هنا ليست مكشوفة بالمعني السلبى إنما مكشوفة بالمعني الإيجابي لترسم الصور والإيحاءات النفسية المناسبة لتقول لنا الصورة الأوضح للمشهد .

لذلك نري السيف يصول والزهد سكران بالطمع والمقابر مثمرة كأشجار النخيل والقطن والأقياد تلبس أصحابها صور واضحة البيان واضحة الدلالة قويتها لحدث واضح المعالم هكذا أرادت اللغة أن تنطلق وتشي ، أن تمثل الحدث بدقة متناهية ، أن تنقل ما يعتمل في النفس بأدق التصوير وأبرعه إن اللغة هنا حاضرة ، فاعلة توازي الحدث والمعني بل تتفوق أحياناً عليه وضمنا نستطيع أن نقول إن الأحداث الوطنية الكبيرة استنفدت لغتها الكبيرة أيضاً .

وهذا المنطق والالتزام اللغوي نلفيه في نماذج وطنية كثيرة وإن كان لابد من الإشارة ههنا فإننا نشير إلى أن قصيدة ما بعد الاستقلال كانت اللغة تصدر في شعرها من نفس مفجوعة من الوطن :

أغوي بني العلم باسوا رجلة * * * وسعوا يقربون له السودان قرباناً (٢)

(١) المصدر نفسه ، ص ٢١٥

(٢) محمد المهدي المجزوب ، الشرافة والهجرة ، ص ٢١٤

بالأمس قال لنا الساعي لأنقذكم

وعاد يلبسنا الأقياد ألوانا ^(١)

هذا هو البرنامج الحزبي ونكوص الأحزاب الوطنية فلغة ما بعد الاستقلال لغة متحدية عازمة ، غارقة في التوليد .

وتسلحنا بأكتوبر لن نرجع شبرا

سندق الصخر حتى تخرج الصخر لنا ماء وخضرة

فاللغة حاضره حضوراً مكثفاً يحيط بطموح الشاعر ، تشي بنفسه الوثابة هنا

والطامحة (تسلحنا) رمزاً للاستعداد الذي لا يجب أن يكون تفريطاً كما كان

سندق ، تخرج

وندق ، تثبت

إن اللغة تذهب بعيداً لتصنيف إرادة ونوايا الشاعر لتصف أسباب ونتائج

الشعر بل لتحديد أهداف وطموح الشاعر .

سندق الصخر (سبب) يخرج الصخر ماء وخضرة (نتيجة)

تسلحنا (سبب) لن نرجع شبرا (نتيجة)

ندق الأرض (سبب) تثبت الأرض لنا مجدداً ووفرة (نتيجة)

تكون اللغة صارمة وقوية حينما تركز للاستعداد في أفعال قوية مثل (ندق)

(سندق) (تسلحنا) وتكون اللغة طرية سائغة حينما ترمز للمستقبل (ماء) (خضرة)

(وفرة) هكذا فإن اللغة تحيط بالأبعاد الزمانية متجاوزة فقر الظروف الزمانية كالأمس

واليوم والغد فإنها استطاعت (اي اللغة) استحضرها ضمناً وبذلك تكون اللغة لاعباً

ماهراً علي (سيرك) النفسي ، والباطني ، بدلالاتها وبتداعياتها ، وبأصواتها ، بأبعادها

وجاءت لغة ما بعد الاستقلال مليئة بالأصرار الذي ولده طول الحرمان علي حياة

جديدة ملؤها الحرية والاستقلال والتفاؤل في معركة إثبات الذات :

قلها لا تجبن ...

أنا زنجي

^(١) محمد المهدي المجزب ، الشرافة والهجرة ، ص ١٤٢

وأبي زنجدي الجد
وأمي زنجية
أنا أسود
أسود لكني حر أمتاك الحرية
أرضي إفريقية
عاشت أرضي
عاشت إفريقيا (١)
وفي فقرة أخرى :

لم أعد مقبرة تحكي البلي
لم أعد ساقية تبكي الدمن
لم أعد عبد قيودي
لم أعد عبد ماض هرم
عبد وثن (٢)

وفي فقرة أخرى :
أنا حي خالد رغم الردى
أنا حر رغم قضبان الزمن
فاستمع لي ... استمع لي
إنما أذن الحقيقة صماء الأذن (٣)
وفي فقرة أخرى :

إن نكن سرنا على الشوك سنينا
ولقينا من أذاه ما لقينا
إن نكن بتنا عراة جائعينا
أو نكن عشنا حفاة بائسينا

(١) الفيتوري ، الأعمال الكاملة ، ص ٣٨

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٣

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٣

إن نكن قد أوهت الفاس قوانا

وقف شعراء سودانيون كثيرون يغردون بسودانية خالصة هي أولي من هوية مزدوجة وحسبنا أن نكتفي هنا بما قاله الفيتوري من لغة من ناحية أن الخوض والاعتراف بالزنجية مثل شذوذا وخروجاً عن القاعدة التي كانت تسود بعرق عربي مدعي فقد ذهب الشعر السوداني إلى تكوين طبقة سمكية من العروبة الخالصة المفتلعة وكان من يحاول ثقب هذه الطبقة فهو جريئ حتى جاء الاستقلال الذي لا بد أن بعض المستنيرين قد تجاوبوا مع أطروحاته الفلسفية كذلك فإن من ينبري لفعل جديد لا بد أن يستعين باللغة والمفردات المليئة بالأصرار والتأكيد لذلك نري اللغة التي صاحبت الصدع بالزنجية فالفعل (قل) فعل أمر يستبطن سلطة عليا:

أنا زنجي

وأبي زنجي الجد

وأمي زنجية

أنا أسود

أسود لكني حر امتلك الحرية (١)

فالضمير أنا بعد انتشار الوعي واندثار (أنا) العربية الفجة ، يأتي أنا لخلق مفارقة . فهنا (أنا) لشي ترفضه الذاكرة العربية ولكن يتقبله الوعي والصدق فالزنجية علي رفض السوداني لها بمسكاته الذهنية فإنها هنا تأتي لتضع النقاط علي الحروف، الحقيقة التي لا يتنكر لها رجل عاش بذهن منفتح فكأنها (أنا) بدأت تخرج من سجنها المظلم ، من عاداتها القديمة إلى آفاق أرحب فقد جاء تكرارها كمعادل موضوعي للأنا السالبة فضلاً عن إصرار الشاعر لتوكيدها ثم لا حتفائه بزنجيته وليس أقل من ذلك دوراً تكراره لكلمة (زنجي) كذلك فعل الماضي (نكن) جاء تكراره لتعداد مآسي المستعمر كما يعطينا إحياء نفسياً كبيراً بالسخرية والاستهزاء من المستعمر كما عبر نفسياً عن طمأنينته ببشريات المستقبل الواعد.

(١) محمد مفتاح الفيتوري ، أغاني أ

هكذا تنهض اللغة شاهداً ودليلاً علي نفسها بنفسها أن قاموس ومعجم
الاستقلال الفني لم ينبر له دارس أو باحث انحيازاً وصفاً فأنا اتصور أن شعر ما
بهد الاستقلال وحتى نهاية القرن العشرين لم يقرأ جيداً لبيحت تالياً .
جاءت قصيدة ما بعد الاستقلال سهلة سلسة في اسلوبها مراعاة لمتطلبات
المرحلة ولما كان الاستقلال وما تلاه من أحدث كلها قريبة من المواطن .
حظيت قصيدة ما بعد الاستقلال بزمن النهضة العربية ، النهضة التي
انتظمت الحياة العربية سنين الخمسينيات إلى السبعينيات زهرة العمر العربي فقد
ماجت الحياة في الاستكشاف والتناقض فأصبح العقل العربي محل دراسة وبحث .

الفصل الثاني

المضمون

المضمون يندرج فيه محتوى القصيدة ، موضوعها ، هدفها العام ، فكرتها المحورية ؟ معناها ، موقف الشاعر . هل كان المحتوى وصفاً أم تسجيلاً ؟ إن التطورات التي تطرأ على المجتمعات تزيد من الحياة تعقيداً وجمالاً وثراءً وغنىً وتعدديةً فكما تتطور الحياة فإن الشعر لن يسكت حيال تطورها . ومن خلال هذا الجدل . فإن الموضوع أي موضوع لا يكون تابعاً للشعر ولا الشعر تابع للموضوع وإنما هما متساوقان ، إذن فإن الموضوعات التي كانت تستغرق الشعر كانت تستغرق الحياة كلها في إطار هذا الفهم نتناول أمثلة على الموضوعات الشعرية الوطنية ما بعد الاستقلال .

النيل على سبيل المثال - ونحن هنا لسنا في حاجة للإعادة بأن النيل مثل رمزاً عميقاً للوطن والوطنية . تفاوت الشعراء حياله من واصف إلى مسجل مستهض إلى شاك ...

وما السودان إن سألت عنه *** سوى قطر يروعه انعزال
بلاد نيلها الميمون فرد *** فليس له جنوب أو شمال⁽¹⁾

كان السياسي دائماً حاضراً في الوطن . كما كان الوطن حاضراً في السياسي . ولا يكاد الشاعر يتحدث عن الوطن إلا من خلال السياسي . وهذه آفة لم تكن تخدم الوطن في شيء . ذلك أن ربط الوطن بالسياسة والسياسيين يفقده كثيراً من الرحابة والسعة .

وقليل من انطلق في وطنيته من المجرد من الثابت ذلك أن السياسة متحرك عاصف لذلك يغلب على شعرنا الصراخ والهتاف ويغلب عليه كونه شعر مرحلة يفقد فاعليته . فدائماً ما تكون انطلاقتهم من المتحول لا الثابت . فلا يكاد يقوم الشعر في

(1) النور إبراهيم : الكتيبة ، ص ٨٢

توصيفه للسودان إلا أنه قطر منعزل أو مهدد بالإنعزال . وهذا لم يكن صحيحاً فالسودان يتمتع بالحضور دائماً وأبداً. فضلاً على ذلك فإن البيتين افتقرا إلى الابتعاد عن الخطاب السياسي وإن كنا نشير فإننا نشير إلى :

▪ لم يكن الصراع الذي تمثل في حرب الجنوب بين الشمال العربي المسلم والجنوب المسيحي الزنجي إلا بمقدار ما تبرع به السياسي من تحليله واستنتاجه الذي رشّح من مصالحه الضعيفة . ومن ثم طبع الشعر الوطني بهذا الطابع السياسي الخاطئ (الصراع في جوهره ارتبط بالهيمنة الاقتصادية أكثر من ارتباطه بالتمايز العرقي)^(١) .

▪ لا يمثل النيل رابطاً حياً بين الشمال والجنوب بل سعد برمزيته وإيحائه إلى طباعة الشعوب بطابعه الحضاري :

يا موطني ...

موطن الأجل

يا موطن الأبنوس والصندل

هل في الدنيا يا سيدي أحلى من نيلنا

ينساب تاريخنا بين الشذى والصوت والمخمل^(٢)

ظل الحاردلو أمينا للطبيعة السودانية سواء فيما كتب بالفصحى أو بالمحلية . معدداً وحافظاً وواعياً للجغرافيا السودانية ومدركاً للتاريخ السوداني فرأيناه يمزج الجغرافي بالتاريخي . لذلك جاءت قصائده الوطنية صادقة . لأن التجربة الشعرية ناضجة وثابتة المنطلقات ، واضحة المعالم فغالباً ما لا يقع في التناقض بين الفكرة المحورية واستقصاءه لمجالات مصاديقها على أرض القصيدة ذلك أن السياسي عند الحاردلو عارض . جاعلاً من الطبيعة عناصر أساسية لفكرته وموقفه . لذلك جاء

(١) منصور خالد : أهوال الحرب وطموحات السلام ، ص ٤١٠

(٢) سيد أحمد الحاردلو - الأعمال الكاملة - ص ٦٠

النيل من وطن يزخر بالطبيعة الخلابة جاء من أرض الابنوس والصندل والشذى
والمجمل :

وجئت إلى الخليج وكان زادي *** شعوري أنه إحدى بلادي
وفارقت الأحبة عن يقين *** بأنهم هنا رغم البعاد
فمن أهلي سوى قوم أراهم *** يعادون العدو كما أعادي
ويعتقون ديناً وهو ديني *** وينطق كلهم ضاداً كضادي
ويجمعنا بهم نسب عريق *** يوحد بيننا من قبل عاد
أقاموا مجد دين ، مجد علم *** وصانوا المجد بالصم الحداد^(١)

ترتد قصائد الوطنية بعد الاستقلال إلى المناخات التقليدية مناخات القصيدة
العباسية وغيرها محكمة البناء ، لا تكاد تنفلت عن الخط لذلك تمسك كثير من
الشعراء بديباجتها فجاءت مضامينهم فاغترفت من الماعون العربي القديم فكثير من
القصائد التزمت ليس بالموسيقى الخليلية فقط بل حزت حزوا أكثر التصاقاً
بالمضمون العربي القديم علي النحو الذي رايناه في قصيدة الطيب العباس في
(الصم الحداد) نموذجاً علي أن الشعر الوطني نفسه يرتد إلى أسباب معدة سلفاً .
ولا يكون منطلقاً من الذات فحسب بل من الموضوع نفسه وإزاء ذلك فإن
الشعر الوطني افتقر إلى الإحياءات التربوية الوطنية .

إن حضور الطبيعة الدائم يسم الشعر بالثابت لا المتحول فقد اهتم الشعراء
بالطبيعة في شعرهم وصفاً وتسجيلاً :

والنيل قد لبس الضحي من خضرة * * متموج فيها العباب الأسمر
والزهر أنفاس يطوف عبيرها * * تحت النخيل حريرها يتكسر
والزهر نور وعده لسواعد * * خشناء تورق في الضفاف وتثمر
والرمل من ذهب يشف مازراً * * تحت النخيل حريرها يتكسر
إني وإن فت الشباب فإنه * * وطن يدوم به صباي الأخضر^(٢)

(١) الطيب محمد سعيد العباسي : السياسات ، ص ٤٠

(٢) محمد المهدي المجذوب ، نار المجاذيب ، ص ١٤٣

إن حضور الطبيعة هو حضور للقدرة علي نسج الديباجة السودانية ما كان يجب أن تغيب ، لذلك نري الشعراء المهمومين بسودان متفرد ، والحالمين بسودان يمتلك عناصر الفردة والتميز ينطلقون من الطبيعي في الأرض والإنسان لذلك فإن العلاقات المتجاوزة للطبيعة التي خلف صفها المجذوب جاءت صادقة وأمينة فقد جاء وصفه :

استغراقاً للدقة وتحريها وتعداد مفردات الطبيعة الحقة : النيل ، العباب ، الرمل ، النخيل ، الحرير ، الزهر ، الشذي ، الزرع ، الثمر ، الأخضر ، الشباب . هي الأسماء التي مثلت سداة فكرته ورؤيته .

تطوف ، تورق ، تثمر ، لبس ، ينكسر ، وهي الأفعال التي جاءت لتبرر الأسماء لتعطيها وظيفتها لتعطيها الحوار اللائق :

نيل يلبس الضحي

ذهب يشف مآزر

الزهر أنفاس تطوف

العبير متعثر

الزرع نور

السواعد تورق

هذا الاستقصاء يحملنا علي الآتي :

أولاً : معجم الشعر الوطني سياسي

ثانياً : الصناعة الشعرية الوطنية مرت بمراحل هي الهتاف الذي عبر عن مرحلته بعض الشعراء واستطاع آخرون الإفلات منه والطبيعي الذي يطرح في حالة الثابت لذلك جاءت القصيدة بعد الاستقلال يستند عليها السياسي تارة ويستند عليها الطبيعي أخري . علي أن القصيدة ضمن سياقها السياسي عبرت عن الخيبة بعد الاستقلال فيما أمل الناس من وراء الاستقلال الكثير :

لي وطن تواعدنا قديماً * * علي اللقيا فعاد صدي سحيفاً

وعاد فما وجدت به صديقاً * * ولا ظللاً نشأت به وريقاً

ولم أبصر بطلعته سلاماً ** وأبصرت الخيانة والعقوقاً^(١)

- لم يعد للسودان وجود بعد الاستقلال إنما أصدقاء وطن غاب
- لم يعد السودان بعد الاستقلال موئلاً من غائط الحر والازمات لذا لا ظلال ولا حياة .
- لم يعد بالسودان بعد الاستقلال وفاء بل خيانة وعقوق :
- غاب السلام بعد الاستقلال .

الشعراء الذين عاشوا مع الاستعمار حياة مدينة منظمة عادوا بعد الاستقلال ليقارنوا بين حياتهم ولعل هذه القصيدة كتبت تحت تأثير المفارقة بين الحياة المرتبة إبان الاستعمار والحياة شبه الرعوية علي مستوي الخدمة المدنية بعد الاستقلال .

وليس لي وطن إلا المحال والجنوب والقيود

وبركة القدر

وسكرة الحقود

وخنجر في حافها استعر^(٢)

كما أن الشعر ليس رواية تستوعب الترتيب والانتظار والإعادة والتعديل والحذف والإضافة نري أن الشاعر الواحد يمثل موقفين متعارضين في كثير من شعر ما بعد الاستقلال فالمجذوب نفسه يقول :

وطني الذي أهوي بعيني مسفر

يدعو رؤاي الغابرات فتبصر^(٣)

لا يقع تحت تأثير العابر ، اليومي ، السياسي إنما يرتكز علي يقين وإيمان كبيرين فعلي الشاعر أن يتحمل عبء الشعر وعبء المواقف التي تتغير والمجذوب نفسه يسمي الشعر عبئاً ثقيلاً وأمانة .

أمانة الشعر علي ثقلها ** حملتها حباً لهذا الوطن

أفقرني المعروف لم ألقه ** لأقطف الخضراء بين الدمن^(٤)

(١) المجذوب نار المجازيب ، قصيدة الحرية ، ص ١٤٣

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٣

(٣) محمد المهدي المجذوب ، دار المجازيب ، ص ١٤٣

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٥١

يحلم فقط بالوطن كما يجب أن نعترف بأن اليأس جر على المجذوب هذا
الرفض غير أن حسن النية والحرص علي وطنه يجعلان من ندمه أمراً عارضاً
تغشاه من حيث يرجو الكثير من الوطن بعد الاستقلال وهذا الحلم بالسودان ظل يقود
الشعر بعد الاستقلال حتماً تعددت فصوله وأبوابه وتشعبت أهدافه ومراميه مختلفاً
عما كان عليه قبل الاستقلال ولابد من يري تخبط السياسيين بعد الاستقلال يعذر
الشعراء في استمرار حلمهم .

سوف لا تتطوي بقلبي أحزاني

وإذا أيقظ النشيد شعبي ونادي من عمقه سوداني (١)

وكما يولد الشعور بتحقيق الآمال والأحلام ثقة بالنفس تولد الخيبة شعوراً

بالضيق والتبرم :

أنا لست جيفة

أنا شاعر قلبي تموح به الحياة هنا وريفة (٢)

غير أن الضعف أحياناً يستبطن قوة القوة التي يكتسبها الشاعر من الثقة في

شعبه فالشعب ملهم :

في الأرض حيران ضائع

دام كثير المواجه

أرنو إليك ... وأعدوا كالطفل في كل شارع

وأرتمي فوق حزني

وفوق شوك المضاجع وبيننا يا بلادي ستارة من مدامع

وصورة يا بلادي قد لونتها المفاجع

وحائظ يا بلادي من فوهات المدافن

دمع وافق ونار

(١) تاج السر الحسن ، قصائد من السودان ، ط ١ ، ١٩٩٨ م ، ص ١٤

(٢) نفس المصدر ، ص ١٤



والموت عريان جائع (١)

كان رهان الشعراء بعد الاستقلال علي الشعب وهو قريب من الالمهم
وأحلامهم ومواجههم بلغة بسيطة صاغها الموقف مهرجاناً من الأفكار والمواقف لا
يتعطل ولا ينتكب بقدر ما يأتي سلساً يكون عميقاً :

يا شعبنا وخطاك إعصار

وصوتك صوت رعد

وبيارق الشهداء فوق تراك من جد لجد

والشمس حانية عليك تطل في تيه ووجد

ترنو إليك وأنت ثورة ثائرين لخير قصد

لحياة شعب ... وانتفاضة أمة ... وبناء مجد

ولتصبح الحرية الكبرى طريقك دون حد

يا ملهم الشعراء أروع شعرهم يوم التحدي

ماذا أقدمه إليك وأنت كل الشعر عندي (٢)

الشعر هنا لا يتوقف عن الرهان علي الشعب وقد رحه كثيراً في جميع
الانتفاضات والثورات التي قادها فالفكرة التي سيطرت علي كثير من الشعراء إيمانهم
بالناس البسطاء ، الفقراء ، المقهورين .

بل كان الشعر بعد الاستقلال أميناً للتجاوز فقد تقاسمت الشعر فكرتان
أساسيتان هما الصراع الطبقي القائم منذ الازل وكيف ينحاز حالية للأضعف للأفقر
فلطالما وصف الشعراء أنفسهم بذلك والفكرة الأخرى هي الإنسان محدد المعالم
واضح القسمات ، ليس مجماً إنما تزدهيه تفصيلاته جميعاً فقيراً مفهوراً ، جائعاً ،
أعزلاً ، أسوداً ، مستعمراً ، دميماً هذا هو إنسان الاستقلال ويراد له الانتصار علي

(١) الفيتوري ، أغاني أفريقيا ، ص ٢٦٠

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٢٧



الإقطاعي ، الأبيض ، المستعمر ، الانتهازي ، الاستقلالي ، فالصراع عندهم قائم
علي سوقه :

يا من غسلتم من جبين الشرق عاره القديم

طوبي لكم

يا أيها الثوار

يا أيها الأحرار

يا من وقفتم وحدة في وجه الاستعمار

يا من دحرتم قوى الظلام والدمار (١)

ثم انظر كيف يتم التعويل علي الشباب :

قلبي النابض لك

ودمي الطاهر لك

كل ما قدمته لي فهو لك

ولتعش يا وطني

خالداً فوق خلود الزمن

أنطلق حراً فبالحرية الأوطان تمضي للأمام

واقترح بالوحدة الكبرى دياجير الظلام (٢)

إن عنصر الإنسان في التنمية والتغيير لم يغيب فجاء الشعر دافعاً ومبشراً

ومغيراً .

فقد اسطاع الشعر أن يبرز كثيراً من القيم والمفاهيم ويبثها بين الناس

لبعانخي ولتهراقا وللمهدي

وود حبوب والقرشي

وللموت الفدائي العظيم

(١) الفيتوري ، أغاني أفريقيا ، ص ٢٣١

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٨

نذكر اليوم جميع الشهداء
كل من خط علي التاريخ سطر بالدماء
نذكر اليوم جميع الشرفاء
كل من صاح بوجه الظلم لا
ونغني لك يا وطني كما غني الخليل
مثما صدحت مهيرة
تلهم الفرسان جيلاً بعد جيل
ونغني لحريق المك في قلب الدخيل
للجسارة حينما استشهد في مدفعه عبد الفضيل^(١)

إن استلهم الماضي للحاضر ينهض موازياً لا استلهم الحاضر للمستقبل وهذا
مثل أحد ركيزتي المفهوم للشعر بعد الاستقلال شعراء ينطلقون من الماضي وشعراء
ينطلقون من المستقبل وهو الشعر الذي مثل الحلم الوطني .

عيناه جمرتان تقزفان بالشرر

كفاه صارمان يحملان في حديهما النذر

دماؤه في مرجل تكاد أن

تمزق الشريان والوريد

وصوته القوى مدفع

صداه يخرق الآذان من بعيد

أنا نمر

أنا الدماء تتهمر

أنا الخيول في مسيرها

زمر

زمر^(٢) (عن المك نمر)

(١) مبارك بشير ، ديوان زمن التداعي ، ط ١ ، ص ٢٢

(٢) مبارك حسن خليفة ، مجلة الخرطوم ، العدد ٢٢ ، يوليو ١٩٩٥م ، ص ٤٣

إن موقف الشعر ما بعد الاستقلال هو موقف مفترق طرق علي مستوي
المضامين الشعرية فلا يكاد يطوي التاريخ أحدي صفحاته إلا ويتداعي لها الشعر
بالتذكار والعرفان وهذا أحد الدروس المستفادة من السياقات التاريخية للشعر إذ إن
التواصل ما بين العهود ضرورة تملئها حاجة الصغير للكبير . وحاجة المفتقر لتجربة
للغني بها :

حينما يأخذك الصمت
فتبدوا بعيداً كأنك راية قافلة
غرقت في سفينة الرمال
تعشب الكلمات القديمة فينا
وتشهق نار القرابين
ويجر السؤال السؤال
وتبدو الإجابة نفس الإجابة
سأفتش عن غائب وهو حضور للأبد
افتش عن أحد ليس كمثله أحد^(١)
(عن عبد الخالق محجوب)

إنه ليس رثاء كما تتطلب القرائن وصفه وكما درج الموت في استدعاء الرائيين
إنه أبعد من أن يكون بكاء أيضاً على فقيد إنه استدعاء ليس للماضي إنما للحاضر
وهذا ما ماز شعر ما بعد الاستقلال عن سواه من عصور .

وكان في قرينته الذرة
مثقلة الأعواد بالثمار
والقطن في حقولها منور
ولوزه نضار
وكان في العشرين لم ير
ألفاً من الشمس مقبلة

(١) الفيتوري ، مجلة الخرطوم ، العدد الثالث ، ١٩٩٢م ، ص ٢٨

ولم يعيش هناة الزفاف
ولم يكن في فمه أكثر من هتاف
ولم يكن في يده أكثر من حجر
وكان في المقدمة
علي خطوط النار والخطر (١)

ولسنا في حاجة للاعتذار عن عدم قدرتنا علي تتبع وإثبات واستحضار كل
ما قيل بحق الوطنيين وحسبنا أن ما اثبتناه هنا نموذجاً يعطي الدارس فكرة محيطة
وكافية عن التيار الوطني ذي المنطلقات الماضوية إثباتاً لادعاء وفرضية أشرنا
إليها سابقاً .

في ذلك اليوم سيقوم الشهداء الأبرار
سيقوم المهدي وود حبوب
وعلي المشنوق
بحبال المستعمر
قرشي ... وصلاح ونصر الدين
وقبورهم المهجورة
ستصير جنازاً فيحاء (٢)

واعتقد أن القصيدة الوطنية تستطيع أن تقدم تنويراً ودرساً وطنياً وهذه هي
أنبل وظائف الشعر فالفن للحياة وهذا المفهوم لم يغيب عن الشعراء بعد الاستقلال.

وسندع الدنيا الجديدة وفق ما نهوي
ونحمل عبء أن نبنى الحياة ونبتكر (٣)
ومن المشكلات التي طرحها الشعر الوطني بعد الاستقلال مشكلة الحرية
والديمقراطية وإشكالية الهوية وإشكالية الهجرة والثورات الشعبية .
الثورة الشعبية الكبرى تغذت بالدماء

(١) محمد المكي إبراهيم ، الأعمال الكاملة ، ص ١٧١

(٢) أحمد محمد خير ، ديوان أغاني كفاح ، المكتب الدائم للكتاب الأفروآسيويين ، ص ٧٢

(٣) محمد المكي إبراهيم ، الأعمال الكاملة ، ص ٩٣

واحتزقت فوق المأذن نارها
المجد في أعقابها يسعي وسحق الخائنين شعارها
ويل لهم من غضبة الحق الأنوف وثورة الشعب الجليلة
ستظل وقفنا بخط النار رائعة طويلة
سنعلم التاريخ ما معني الصمود وما البطولة
سنذيقهم جرحاً بجرح
ودماً بدم
والظلم ليلته قصيرة (١)

تلخيص للمشهد السياسي ساعتئذ والثوري

فقد طرحت قضية الثورة المضادة للحكم العسكري ونشير هنا إلى :

ما عاد الخائن المستعمر بل الخائن هو الوطني العسكري لم تكن المقاومة
هنا ضد المستعمر بل كانت ضد الوطني الخائن لم يكن مصدر الظلم مستعمر إنما
الحاكم السوداني فقد آست القصيدة الوطنية بعد الاستقلال من الوطني الذي لم يلتزم
تداول السلطة سلمياً فكانت دائماً تتدخل المؤسسة العسكرية لإجهاض الديمقراطية :

الليل ييطئ في المسير وقرب مستشفى العيون

دوت صفاير قصار

وتوقفت ست من العربات يزحمها جنود

قفزوا كأعمدة ذوو الخوذ الثقال

الحق كانوا خائفين (٣)

إن الشعر يهتز ، يشارك ، يخلق ، يتواكب . فقد انبري مجسداً مواقف كأنه
مؤسسة عظيمة تمتلك معايير التقييم والجودة والحق هو كذلك فإن قضية الانتفاضات
الشعبية كانت دائماً تسم الشعب السوداني بأنه شعب جبار ، صمود قاهر
الدكتاتوريات ذلك أن العالم العربي والأفريقي ، وهما يتقاسمانا انتماء قلما يحدث

(١) محمد المكي إبراهيم ، الأعمال الكاملة ، ص ٦٧

(٣) عبد الرحيم أبو ذكري ، ديوان الرحيل في الليل ، الخرطوم ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، ١٩٧٣ / ص ٣٧



فيهما مثلما يحدث في السودان. كأن الشعب السوداني قد ماتت فيه جرثومة الخوف
وجرثومة الخنوع والصبر علي الذلة .

أو يكفرون وأنت يا وطني

تحل معاهد الدنيا ، وتخترع الصباغ الطلق

من ليل الدخان

أو يكفرون وأنت من زيتونة

فوق الجهات الكل

تخرج من جذور القلب تنبت بالأمان

فلتسقط الألوان قاطبة

ويحيا قطنك السنوي ... يستر سواة الدنيا

وبورق حول خاصرة الزمان (١)

(حول انتفاضة أبريل ١٩٨٥م ضد المشير جعفر محمد نميري)

هذا حضور الشعب حينما يغير ، ينتفض ضد حكم عسكري هذا حضور
الشعب الذي أراد أن تكون حرته وديمقراطيته وإرادته لا يتسلط عليها حتى الوطني
الفاسد. كما أن الأفكار إبان الاستعمار هي في كثير من الشعر مشابهة للأفكار بعد
الاستقلال ، من وصف العدو بالخائن ، الغادر ، السافك ، الفاسد ، المستبد ،
الغاصب ، والشعب هنا هو الشعب هناك والكلمات هي الكلمات .

كما طرح شعر الاستقلال مشكلة الهوية، الصراع الذي تمثل جذرياً في
الانتماء العربي الزنجي وقد نشأ هذا الصراع من التركيبية العرقية التي تُولف
السوداني فقد عرف السودان الزنجي هجرات عربية تزوجت مع السكان المحليين
فأصبح هذا يتوالد علي أثره الهجسين فليس لعنصر أن يدعي نقاء عنصره فذلك
الإدعاء ينطوي علي مغالطة كبيرة لغلبة عنصر الهجين علي التركيبية الشمالية
والجنوبية للسكان ، ولكن كثيراً من الشعراء كانوا مدفوعين تحت تأثير لا يحترم
الحقيقة التاريخية . وظلوا يفكرون بما يأملون لا بما هو واقع ولو أن كثيراً من

(١) عبد القادر الكتيابي ، الأعمال الكاملة ، ص ٣٦

الشعراء التفوا حول المواطنة كقاسم مشترك لازدهر الفهم بالمواطنة ولتطورت المضامين الشعرية ولصدر شعر لا يقدر العرقي ، الجهوي ، القبلي ، المناطقي ولا يلتفت للمحاصصة ولعل شعر ما بعد الاستقلال حاول في كثير من الأحيان التقلت من هذه الرقعة ولكنه بقي أسيرها في كثير من إشارته ومضامينه .

ان المواطنة ارتباط حاسم بالأرض التي يقيم عليها الإنسان وليست ارتباطاً بالعرق أو اللغة كما هي عقد اجتماعي بين الأفراد الذين يتساكنون علي هذه الأرض علي اختلاف ملهم ونحلهم ونظرية المواطنة تليق بدولة نهضت من استعمارها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كالسودان . وكان يجب أن ينطلق بتمايزه وتنوعه وعروقه ولغته ومناخاته وثقافته لا أن يقعد .

نحن أما أمية أو قريس * * * إن أفادت من أسمها الأسماء (١)

وقد احتد هذا الصراع ليخلق فيما بعد مدارس أدبية اتسم فيها التيار العروبي بالمحافظة والتقليد بينما وسمت التيار الأفريقي بالتجديد .

أنا من أفريقيا :

صحرائها الكبرى وخط الاستواء

شحننتي بالحرارات الشموس

وشوتتي كالقرايين علي نار المجوس

لفحنتي فأنا منها كعود الأبنوس (٢)

ويقول فراج الطيب :

وهم بما صهرتهم شمسها سمر (٣)

الشمس لا التزواج هي ما تسببت في سواد بشرتنا

إن صراع الهوية فرض جدلية أخري علي المستوي الشعري وهي الصيغة

التي طبع بها هذا الصراع الشعري بطابعه وعليه فإن الهوية مثلت مشكلاً شعرياً

(١) عزيز التوم منصور ، ديوان من محراب حبي ، ص ٦٠

(٢) صلاح أحمد إبراهيم ، غاية الأبنوس ، ص ٣٥

(٣) فراج الطيب ، قصيدة دار السلام ، ص ٧

ولعل المدافعين عن هوية سودانية أصيلة وخالصة قد ارتدوا لتفسير مؤداه أن السودان كان منطقة وسطي لتلقي الحضارة والتجارة كمنطقة عبور بين غرب أفريقيا والجزيرة العربية (ومنذ أن كانت علاقة الثقافة العربية بهذا المكان الأفريقي تقوم علي الجسر المتين بالتلاقح والتبادل)^(١)

بدوى أنت

لا

من بلاد الزنج

لا

أنا منكم عاد يغني بلسان

ويصلي بلسان^(٢)

هذه هي الازدواجية

وجهك يا قرشي

يا زنجي

يا نوبي

ومضة بارق من شعبنا الخلف

وفيضاً من فؤاد النيل في الاعشاب^(٣)

هكذا يتداعي الشعراء تحت تأثير الدعوات المتكررة من المعسكرين كليهما العربي والأفريقي هذا التداعي الذي أفضي إلى خلق شخصية تعترف بالزنجي منها وبالعربي وهي مرحلة ناضجة في حياة السوداني علي مستوي فكره وهويته نحن من أفريقيا من مهد الجمال السرمدي ونمتنا آسيا

من دماء العرب من أصل نبيل المحتد

(١) أصول الشعر السوداني ، عبد الهادي الصديق ، دار جامعة الخرطوم ، ط٢ ، ١٩٨٩م ، ص٤٨

(٢) محمد عبد الحي ، العودة إلى سنار ، ص١٩

(٣) دكتور تاج السر الحسن ، قصائد من السودان ، ص٣٥

أشرقتم شمس الصباح

فالتقينا في الصباح

وقذفنا الرعب في قلب المغير المعتدي (١)

نخلص من ذلك كله إلى أن الشعر الوطني ما بعد الاستقلال تناول قضية الهوية، طرح هو الآخر قضايا أخرى تمثلت في الدعوى إلى التجديد الذي استجاب للتيارات الشعرية الحديثة .

من الطروحات التي استغرقت الشعر الوطني بعد الاستقلال معنى الاستقلال نفسه مفهومه ، ومتطلباته ، ومستوياته ، وفي ظل ذلك آمال السودانين أحلامهم مشاكلهم وضمنا كيف يراه الشعراء كيف عبروا عنه مدي خيبتهم ، وحظوظهم المشاكل التي طرحها الاستقلال والحلول التي بشر بها .

نال السودان استقلاله من داخل البرلمان في ديسمبر ١٩٥٥م ورسمياً يناير ١٩٥٦م استطاع السودان أن ينزل علمي الاستعمار الإنجليزي والمصري ويحل مكانهما العلم السوداني . ومن حينها أصبح السودان دولة كاملة السيادة والاستقلال وقد كان يوم الاستقلال يوماً مشهوداً في حياة السودانين ظلوا يحتفلون بذكره سنوياً كما ظل الشعراء ينفعلون بذكره .

يوم به يزهي الحمي ** فتق القلوب وتيما

يوم السيادة جاء ** للمجد التليد متيما

هو نعمة عطف الإله ** بها علينا منعما (٢)

نستطيع أن نقرأ معنى الاستقلال البارز في الفهم السياسي فهو يعني سيادة الوطني علي بلده . وحمل الاستقلال معانٍ أخرى ، حمل معنى جمالياً ومعنى اقتصادياً ومعنى اجتماعياً :

أهو علي العلمين وانتزع السيادة منهما ، معنى سياسي
عهد المظالم والمساوي لم بعد متحكماً ، معنى اجتماعي
والأرض صار أديمها روضاً وكان جهنماً ، معنى جمالي

(١) مبارك صالح المغربي ، حذاء الاستقلال ، ط٢ ، ١٨

(٢) مبارك المغربي ، ديوان حذاء الاستقلال . ص ٣

قد آن أن نستاف أزهار الحياة وننعماف ، معني جمالي
بالأمس كان الظلم في هذي الربوع مخيماف ، معني اجتماعي
الراي للشعب الأبوي ومن لطينته احتمي ، اجتماعي ، سياسي
وهي نموذج للمعاني التي طرحها الاستقلال من أفكار ورؤي وأمان وليس
بالضرورة أن تأتي قصيدة الاستقلال تحت هذه المعاني حتماً فالشعر له سحرة الذي
يبتكره في لغته أو في أسلوبه أو في علاقاته المتواشجة :

أحافظ سرنا وانطوي العلمان ** * ورايتنا النيلان يعتنقان
ففي مصر تحرير وفي الهند منعة ** * وأحرزت السودان كل معاني (١)

غير أن المضامين مهما اتسعت أو ضاقت فإنها لن تعطي الشعر الكثير
فهي مطروحة علي قارعة الطريق كما يقول الجاحظ إذن معيار الشعر يحدده
الاسلوب تصنفه اللغة تؤطره الصور الجمالية ، والصورة البيانية ، و الحوار ،
والاستفهام ، إذن فإن الشعر عبرته ليس في (ما) إنما في (كيف) .

وإذا ما جهدنا سوف تخرج أرضنا لنا ذهباً فالحر ليس مدان (٢)
أن حضور المعني الاقتصادي في قصيدة ما بعد الاستقلال حضور أملاه
الوعي الاستراتيجي فقد كان الحضور أكثر في الأرض ذهباً وزرعاً لا نفطاً .
هل كانت الأرض تحتاج لمن يفلحها زرعاً ومعدناً ونفطاً شرط استقلالها من
المستعمر ؟ أم أن معني الاستقلال كان يجب أن يرتفع في ذهن السوداني وينصرف
إلى معان أعمق كالاستقلال في الذهب وفي التفكير وفي القرار وفي الخيال ذلك أن
تجربة السوداني مع أرضه لم تكن لتؤكد استقلاله وهذا يفتح باباً آخر لباحثين آخر
حول الشخصية السودانية ومتي تستطيع أن تعطي عطاء إيجابياً؟ هل تحت تأثير
الديمقراطية أم تحت تأثير الحكومات الشمولية والعسكرية؟ . ذلك أن التجربة منذ
الاستقلال وحتى نهاية القرن العشرين لم تثبت أن خروج المستعمر كان تحريراً

(١) توفيق صالح جبريل ، افق وشفق ، ط١ ، ص ١٠٤ ، الجزء الرابع

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١١

واستقلالاً في ذهن وتفكير السوداني . فقد ظل في ذهنه رهين الاستعمار الاجتماعي المتخلف .

فما فرحة استقلالنا أن نحيطه وعوداً وتحذوه الأمانى الكواذب
ولكن بأن نرعاه في كل خطوة تلح علينا أن تصان المكاسب
يميناً لو أن الشر حاق بأرضنا دفعت بأعلي ما تضم الجوانب (١)

تاريخ كتابة هذه القصيدة ١٩٦٢م وهذا يعطي الدارس ضوء في معرفة المعاني التي ينتجها تطور معني الاستقلال . ويعطينا انطباعاً مبدئياً بالشعور بالخيبة بالاستقلال ذلك نلمحه من احتراس الشاعر الذي ملأ جوانب القصيدة . بدأ الشعر يتحفظ وبعد قليل سيواجه ، وبعد قليل سيعترف بالخيبة في الاستقلال وسينهار معني الاستقلال كما عند الكثيرين .

أبكي علي الوطن المنكوب ضيعه * * من يحسبون حقوق الناس عدونا
إني لا أخشي علي السودان قارعة * * تعطي الأجاويد اسماحاً وإحساناً (٢)

كان السودان ضمن استقلاله محطماً بالعادة والعرف لذلك كان يذوب أو ذاب عنده معني الاستقلال ذلك أن العري القبلية والعشائرية والاجتماعية والخرافات كانت أقوى من أن يخرقها الفكر الذي يحمله معني الاستقلال الحقيقي خاصة إذا كان تنويرياً لم يعتد الناس عليه ، وتأسيساً علي ذلك لم تكن المشاكل والصراعات التي انفتحت علي مصراعيها بعد الاستقلال؛ لم تكن غريبة غير أن الحقيقة التي عرفها السودانيون من الحكام بعد الاستقلال كانت توازن احباط السودانيين من المستعمر بل أشد . انظر صالح بيلو :

(١) مبارك المغربي ، حذاء الاستقلال ، ص ١١

(٢) محمد المهدي المجذوب ، اشرافه والهجرة ، ص ٢١٤

أوشكت أمزق راياتي ** وازيل كل شعاراتي
وأخرب صرح مناراتي ** قيمي العليا ووراثاتي
وأعيش بغير قداساتي ** أبدا منكور القسمات (١)

ثم تدحرج الاستقلال ككرة الثلج :

ولي وطن تواعدنا قديماً ** فعاد صدي سحيقاً
وعاد فما وجدت به صديقاً ** ولا ظلا نشأت به وريقاً
ولم أبصر بطلعته سلاماً ** وابصرت الخيانة والعقوقا (٢)

هكذا استلمت الأحزاب رشح الخيبة والظلم من الاستعمار وهكذا ورثت
الأنظمة السياسية الفاسدة بعد الاستقلال تركة المستعمر .

سكت أراقب الأحداث حيناً ** وعبء الصدر فاهتاج الكلام
وبين اناملي قلم رشيق ** يهز الدهر والجيش اللهما
علام الصمت والزهواء فينا ** فلا إفا تركنا ولا سلاماً
يعز علي يا وطني المفدي ** أري أهليك يبعون الخصاماً
أري الأحزاب لا تسعي لألف ** وأمرهم إلى البلوي ترامي (٣)

لم تراع الأحزاب الاستقلال وحق لها أن تراعي معناه العظيم مع كل ذلك فإن
الشعر لا يفقد هو الآخر معني أن يبشر ، أن يحلم ، أن يأمل أن يتفاعل .

أمنت بالشعب منصاعاً له القدر ** يملي إرادته قسراً فنتتصر
أمنت بالشعب عملاقاً تخلده ** أمجاده الغر والتاريخ والسير
في غمضة العين قد أجلوا مدافعهم ** أين الرصاص وأين الجيش والخطر (٤)
لا بد أن يصنع الثوار خاتمة ** تنهي العصابة والطغيان يندحر

(١) صالح بيلو ، ورقات من الزيتون ، ص ٥٨

(٢) محمد المهدي المجذوب ، الشارف في الهجرة ، ص ٦٥

(٣) دكتور أحمد عبد الله سامي ، ديوان الرمال الضامئة ، ص ٧٢

(٤) دكتور الزين عباس عمارة ، الأعمال الكاملة ، ص ١٠٤

الخاتمة

أن الدارس للشعر الوطني السوداني لما بعد الاستقلال يلاحظ :

أولاً : إن النظم السياسية المتعاقبة من ديمقراطية إلى شمولية كانت لها التأثير الأكبر علي المضامين الشعرية الوطنية. كما أن كثيراً من الحركات المقاومة كانت بإيحاء وتأثير من الشعر. نلاحظ ذلك علي العلاقة في كثير من الحركات وكثير من الشعر. ثانياً : كان كثيراً من الشعر الوطني لا يقف مع الدولة. وقليل ما تصالح الشعراء مع الانظمة. لذلك فإن كثيراً من الشعر كان يقف في صف المعارضة. وهذا حرم الشعر كثيراً من ديمومته وأحاله إلى شعر يتعقب الماضي لا المستقبل. وقلما تصالح الشاعر السلطة .

ثالثاً : أن الشعر الوطني السوداني لما بعد الاستقلال لم يلق الحظ المناسب من الدراسة . الدراسة التي تخرجه إلى آفاق العالم ليساهم في كسر الطوق الذي صنعناه بالشراكة مع الآخرين .

إن الدراسة للشعر الوطني ١٩٥٦ - ٢٠٠٠ م لابد أن يتصحب التحولات الكبيرة التي طرأت علي المفهوم الوطني من حيث :-

أولاً : إن العولمة زلزلت معني الدولة فقد طرحت أفكارها جديدة ما عادت الدولة معها قادرة علي السيطرة علي حدودها في الجغرافيا والتاريخ وتبعاً لذلك فإن الدارس لابد أن يعي دوره هكذا متغيرات .

ثانياً : إن القوميات التي يضحج بها السودان تحتاج لمن يخرجها عن عزلتها وما تنتكبه من فرقة إلى الوحدة والاندماج واعتقد أن المزيد من البحث والدراسة والتي توظف في استيعاب انجازات هذه القومية أو تلك من الأدب ، تقوم بالدور خير قيام .

إن بحثاً يقع ضمن سياق زمني محدد لابد أن تتحري فيه التواريخ ، لذلك أوصي كليات اللغة العربية بحصر الشعر السوداني واثبات تواريخ كتابة القصائد ليتسني للدارس معرفة حدود بحثه جيداً . ومن ثم تأتي الدراسة لتعبر تعبيراً صادقاً عن أمانتها من حيث التاريخ .

لم يكتب الشعر السوداني كله بالفصحى ؛ بل كتب باللهاجات المحلية . لذلك ليس من الأمانة إدعائنا الإحاطة بدراسة المشاعر الوطنية السودانية كلها . لذلك

أوصي بترجمة كل أشعار القبائل السودانية الي اللغة العربية وإضافتها للمكتبة
السودانية .

المصادر :

- | اسم المؤلف | اسم الكتاب |
|---|------------|
| أحمد عبد الله سامي : الرمال الزائفة . القاهرة . مطبعة محمد علي . ١٩٦٣ . | |
| أحمد محمد خير : أغاني كفاح . المكتب الدائم للكتاب | |
| أحمد محمد صالح : مع الأحرار . بيروت . دار الحياة . ط ١ | |
| إدريس جماع : لحظات باقية . بيروت . ط ١ | |
| التجاني يوسف بشير : إشراقة . بيروت . مطبعة الحياة . ط ١ | |
| التجاني عامر : جدل وهزل . بيروت . ط ١ | |
| الزين عباس عماره : المجموعة الشعرية الكاملة . أبو ظبي . دار نكتو . ط ١ | |
| الطيب محمد سعيد العباسي : العباسيات . دار البلاد . ط ٢ . ١٩٩٩ م . | |
| الناصر قريب الله : الناصريات . الخرطوم . دار البلد . ط ١ . ١٩٦٧ م . | |
| النور عثمان أبكر : صحو الكلمات المنسية . الخرطوم . دار التأليف والنشر . | |
| النور عثمان أبكر : غناء للشعب والزهرة . الخرطوم . دار التأليف والنشر . | |
| الهادي آدم : كوخ الأشواق . بيروت . ط ٢ | |
| الجيلي عبد الرحمن : القلب الأخضر . دار البلد . ط ٢ . ١٩٩٨ م . | |
| تاج السر الحسن : القلب الأخضر . ط ١ . ١٩٩٨ م . | |
| توفيق صالح جبريل : أفق وشفق . بيروت . دار الجيل . ط ١ . ١٩٩١ م . | |
| جعفر حامد البشير : حرية وجمال . بيروت . ط ١ | |
| حسن نجيلة : ملامح من المجتمع السوداني . بيروت . ط ١ | |
| حمزة الملك طمبل : الأدب السوداني وما يجب أن يكون عليه . بيروت . ط ١ | |
| حسن طه : هتاف الجماهير . بيروت . ط ١ | |
| سيد أحمد الحارذلو : من وادي عبق . دار العودة . | |
| صلاح الدين المليك : شعر الوطنية في السودان . بيروت . دار العودة | |
| صلاح أحمد إبراهيم : غابة الأبنوس . بيروت . مكتبة الحياة . | |
| صلاح أحمد إبراهيم : غبضة الهبابي . مكتبة الحياة . | |
| عبد الهادي الصديق : أصول الشعر في السودان . الخرطوم . دار جامعة | |

الخرطوم . ط ١

- عز الدين الأمين : نقد الشعر في السودان . القاهرة . مطبعة الجيلاني . ١٩٦٩ م
- عبد بدوى : الشعر الحديث في السودان . بيروت . ط ١
- عبد المجيد عابدين : التجاني شاعر الجمال . ط ١
- عبد الله الشيخ البشير : دراسات في شعر التجاني .
- عبد الحليم محمد ومحمد أحمد المحجوب : موت دنيا . بيروت . ط ١
- على بويهم : في الاسلوب الادبي . دار الحياة . ط ١
- عالم عباس محمد نور : منك المعاني ومنا النشيد . ١٩٧٤ .
- عالم عباس محمد نور : إيقاعات الزمن الجامح . بيروت . ط ١
- عبد الرحيم أبو ذكري : الرحيل في الليل . الخرطوم . دار جامعة الخرطوم . ط ١
- عبد الله عبد القادر الكتيابي : أعمال الكتيابي الكاملة . ط ١ . ٢٠٠٦ م .
- عبد الله الطيب : أصداء النيل . بيروت . ط ١
- عبد الله الطيب : أغاني الأصيل . بيروت . ط ١
- عبد الله الطيب : سقط الزند . بيروت . ط ١
- عبد الله محمد عمر البنا : ديوان البنا . الخرطوم . دار جامعة الخرطوم . ط ١ . ١٩٧٦ م .
- عزيز التوم : من محراب حبي .
- على يوسف على : نبضات قلب . بيروت . ط ١
- ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث . بيروت . مكتبة الحياة . ١٩٦٨ م .
- فضيلي جماع : دموع القرية . مجلة الإذاعة والتلفزيون . العدد ١٤ . يناير ١٩٨٦ م .
- فراج الطيب : ديوان دار السلام . تحية وقضية . ط ١ . ١٩٨٨ م .
- كامل الباقر : من وحي القلم الفضي . الأسكندرية . المكتب المركزي الحديث
- محمد نور ضيف الله : كتاب الطبقات . بيروت . ط ١
- محمد المكي إبراهيم : الفكر السوداني . أصوله وتطوره . بيروت . ط ١
- محمد إبراهيم الشوش : الشعر الحديث في السودان . بيروت . ط ١
- محمد النويهي : الاتجاهات الشعرية في السودان . بيروت . ط ١
- محمد عوض : السودان الشمالي - سكانه وقبائله . بيروت . ط ١

- مكي شببكة : السودان في قرن . مكي شببكة . ط ١
- منصور خالد : أهوال الحرب وطموحات السلام . ط ١
- معز عمر بخيت : الأعمال الشعرية الكاملة . بيروت . ط ١ . ١٩٩٩م .
- مبارك المغربي : عصارة قلب . الخرطوم . دار العلم . ط ٢
- مبارك المغربي : ألحان الكرون . الخرطوم . دار العلم . ط ٢
- مبارك بشير : زمن التداعي . الخرطوم . دار الثقافة للنشر . ١٩٨١م
- محمد مفتاح الفيتوري : أقوال شاهد اثبات . بيروت . مكتبة الحياة . ١٩٦٧م .
- مصطفى عوض الكريم : السفير . الخرطوم . الدار السودانية للكتب . ١٩٧٢م
- هنري رياض : التجاني يوسف بشير شاعراً وناثراً . ط ١

الفهرس :

رقم الصفحة	الموضوع
أ	الإهداء
ب	الشكر
٤ - ١	المقدمة
١٤ - ٥	تمهيد
١٥	الباب الأول : المفاهيم الوطنية في الشعر السوداني
٢٢-١٦	الفصل الأول : الاستقلال
٣٢-٢٣	الفصل الثاني : الهوية
٤٣-٣٣	الفصل الثالث : التضحية والفداء والحب
٤٤	الباب الثاني : الرموز الوطنية في الشعر السوداني
٥٢-٤٥	الفصل الأول : النيل
٦٥-٥٣	الفصل الثاني : المكان
٧٤-٦٦	الفصل الثالث : مشاركة الشعر السوداني في القضايا الوطنية الخارجية
٨٣-٧٥	الفصل الرابع : الثورات الشعبية
٨٤	الباب الثالث : الخصائص الفنية للشعر الوطني
٩٣-٨٥	الفصل الأول : الأسلوب
١١٣-٩٤	الفصل الثاني : المضمون
١١٦-١١٤	الخاتمة
١١٩-١١٧	المراجع
١٢٠	الفهرس

للمرلة الذي بنعمته تتم الصالحات ...